

سيمائيات المكان في النص الأدبي مقاربة في رواية ترميم الذاكرة

عائشة الدرمني

توطئة

يشكل المكان واحداً من المحاور الرئيسة التي تشغل بها نظرية الأدب الحديث في كونه عنصراً تشكيميا من عناصر النص ، فهو ليس مجرد خلفية للأحداث والذوات فحسب لأن العناصر المكانية تشكل علاقات متجانسة أو متضادة مع بعضها البعض من ناحية ومع عناصر النص الأخرى من ناحية ثانية ، بالإضافة إلى أن المكان يشكل قيمة دلالية خاصة في منظومة النص اجتماعياً ونفسياً بل ووطنياً وقومياً ؛ فعلاقة الإنسان مع المكان تتكون وتتمحور في إطار الخبرة المباشرة ، والإدراك الحسي ، والارتباط الوثيق من لحظة الولادة حتى الممات ، لذلك يتجلى المكان عنصراً رئيساً في الحياة الإنسانية يوثق من صلات الذات مع الآخر (الذوات والعالم الخارجي).

لقد طرأت على الأمكنة في الفكر الإنساني تغيرات عدة تحولت خلالها تلك الأمكنة من بدئية إلى معطى ثقافي . ومن ثم إلى أمكنة جمالية فنية لها سماتها وعناصرها المميزة فانتقال المكان من موقعه الفيزيائي إلى الموقع الثقافي مر من خلال الذات الإنسانية لأن العلاقة الكائنة بين الإنسان والمكان تتسم بالالتصاق والتلازم¹.

وإذا كان المكان - بالمعنى الفيزيقي - هو تلك الأمكنة المتعددة التي تحيط بالذات الإنسانية في حياتها العامة فإن اللغة في الكتابة الأدبية ستحول المكان من وصفه هذا إلى نظام من أنظمة المعطيات المحسوسة التي ستشكل النص الأدبي وتحدد معالمه وعلاقاته من خلال تحويل العالم إلى أنساق لغوية وميتالغوية. في هذا البحث سيكون الاشتغال على سيمياء المكان بتنويعاته وتمظهراته وعلاقاته في إطار النص الأدبي النموذج (ترميم الذاكرة) للكاتب حسن مدن² وهو محاولة لإبراز تلك العلاقات التي يقيمها المكان مع الذات أو العكس ، والتي يقيمها المكان مع الأزمنة والفضاءات المتعددة لكونيته في السياقات المتعددة للنص.

أولاً : المكان بوصفه علامة

إن المكان - بالمعنى الفيزيقي - يعتبر أكثر التصاقاً بحياة الذات اليومية من حيث خبرتها به وإدراكها له ، وهذه الخبرة وذلك الإدراك مرتبط أيضاً بأزمة هذا المكان بصورة غير مباشرة ، ليشكل المكان في حياة الذات علامة من العلامات التي يدركها مباشرة بصرياً أو لمسياً أو معرفياً ؛ فالعلامة هي : " كل شيء أو حدث يحيل على شيء ما أو حدث ما-³ ، وهذا التعريف يسمح بتضمين مقولة العلامة كل ممكنات الإحالة والمثيرات المتعددة والمتنوعة في حياة (الذات/ العلامة) المنتجة لكل تلك العلامات ، (والمكان) وهو الموضوع⁴ واحد من تلك العلامات التي تنتجها الذات ، وتشكل مثيراً لها بل تشكل جوهر الحياة اليومية ومحتوى من محتويات الوجود حولها ؛ فالتيارات الحديثة للسيمانيات تدرج ضمن أقسام العلامات كل المظاهر الثقافية للحياة الاجتماعية ، بما في ذلك الموضوعات - الوظيفة التي يتخللها معنى ، وهذا التدليل بالغ القوة ، فمجرد ما يكون هناك مجتمع يتحول كل استعمال إلى علامة لهذا الاستعمال...⁵

إن المكان حقيقة معاشة ، يؤثر في الذات بقدر ما يؤثر فيه ، فلا يوجد مكان فارغ أو سلبي⁶ ، لأن المكان نتاج الذات المعماري والاجتماعي ؛ ومن جهة أخرى فإنه يفرض عليها سلوكاً خاصاً يختلف باختلاف هذه الأمكنة وتنوعها ، والطريقة التي يدرك بها المكان تضي عليها دلالات خاصة ؛ ذلك لأن دلالات المكان المتسع تختلف عن دلالات المكان الضيق ودلالات المكان المزدهم تختلف عن دلالات المكان غير المزدهم وهكذا ، فالذات لا تكتمل داخل حدود ذاتها الشخصي المفرد ولكنها تنبسط خارج هذه الحدود وتمتد لتصبغ كل ما حولها بصبغتها الدلالية الاجتماعية والنفسية لتسقط على المكان قيمها الحضارية.

إن تحليل المكان الروائي سيميائياً يستدعي تحديد البنى المكانية وهي على قسمين:

الأولى : البنية المكانية الظاهرة ، وتتحدد في علاقة الشخصيات بالمكانية من ألفة ونفور وابتعاد واقتراب وغيره .

الثانية : البنية المكانية العميقة : وهي التي تجعل من المكان شبكة من العلاقات القائمة مع باقي مكونات

الخطاب وخاصة الرؤية ، والبنى المكانية العميقة متنوعة ومتعددة من أهمها :

1. المتوالدة : إن هذه البنية المكانية العميقة تعتمد على الشخصيات ورؤيتها للمكان ، وتتميز

باستدعاء الكل لمجرد ظهور الجزء ، فالباب يستدعي وجود جدار ، وهذا يستدعي وجود غرفة وهكذا .

2. المتدرجة : وهي بنية تعتمد على وصفها لمكان محدد ، ومن ثم تتدرج إلى باقي الأمكنة .

3. المتداخلة : وهي تعتمد على حركية العلامة المكانية في أكثر من اتجاه ، وتداخل الأمكنة داخل

النص ، وتتميز بكونها مفككة .

4. المتكررة : وهي البنية المكانية المنفتحة الدلالة التي تعتمد على ثبات المكان وتكرارته في أجزاء

مختلفة من النص الأدبي الواحد.⁷

إن هذه العلاقات الأربع تعتمد أساساً في تحديدها للعلامة المكانية على رؤية الذات للحدث ؛ فالرؤية المكانية في العمل الأدبي هي امتداد لرؤية مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية وغيرها من المناحي الحياتية . على أن الملفوظ النصي / المكاني في العمل الأدبي يعتمد إلى الوصف المباشر والمتقطع للأمكنة والموجودات المتعلقة بها ، وقدرة دمجها مع عناصر النص التي تشكل الخطاب اللغوي والميتالغوي لتأسيس بنية النص وتجانسه .

ثانياً : المكان في خطاب (ترميم الذاكرة)

إذا كان المكان السرد في نصوص كالرواية مثلاً يتميز بكونه : لفظي ، وثقافي ، ومتخيل ، فإن المكان في نص السيرة واقعي يتحدد بعلاقاته ومفاهيمه المكانية المتمركزة في الذاكرة وهذا لا يعني أن السيرة تقوم على الواقعية البحتة وإنما على إعادة إنتاج هذا الواقع بطريقة سردية غير منفصلة عن عناصرها الأساسية (اللغة ، والشخص ، والفضاء ...)؛ فالأمر هنا لا يتعلق بالعودة إلى الشيء أو المكان فحسب لأنه بدءاً من اللحظة الأولى للإحساس فإن السيرة تخلق تفاعلاً بين القوة العقلية وبين النوعية المنتجة والتعرف عليها ، أما الأشياء الواقعية فيتم إقصاؤها...⁸ ، وهذا الإقصاء إنما يكون محكوماً بقيمة النوعية المنتجة في مقابل الواقع ، فمن السير الذاتية إنما هو صيغة قراءة بمقدار ما هي نمط كتابية ، إنها أثر تعاقدي متغير تاريخياً.⁹

إن نص (ترميم الذاكرة) هو سيرة حياة ذاتية كتبها (المؤلف) باعتباره الذات الرائية واللامسة والمنتجة للنص ، فالنص باعتباره ظاهرة لغوية يشكل جزءاً من النظام اللغوي الذي ولده ، والذي أنتجه في شكل خطاب سردي ، ومن هنا يمكن أن نعامله على أساس "أنه منتج سيميائي هدفه التعبير عن معنى"¹⁰ ، وهذا المعنى لا يتجلى فقط في سرد حكاية الحياة وإنما في تلك الدلالات الفردية والجمعية التي تنتجها الأنظمة اللغوية والميتالغوية للنص ، ولأن (الكاتب في هذا النص هو (الذات) نفسها المتحدث والساردة والموثقة للنص فإن هذا يجعل للنص خصوصية مختلفة في إنتاج العلامات وتحميلها للدلالات المختلفة فـ "حياة الإنسان يمكن أن تكتب على أفضل طريقة من خلاله هو"¹¹ ؛ ذلك لأنه الأقدر على إنتاج الخطابات المتعددة للنص من ناحية والأقدر على تضمين الأمكنة والأحداث والشخص كونه شاهداً عليها فنحن - نملك الاستعداد ، أو التهيؤ ، لتنظيم التجربة في شكل سردي"¹² ، لأنها تجربة شخصية فردية في حضور جمعي تفاعلي لإنتاج مجموعة من العلاقات الممكنة بين عناصر النص بوصفه نصاً أدبياً .

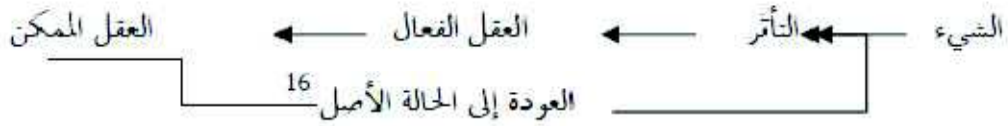
يقوم نص (ترميم الذاكرة) على مثل تلك العلاقات التي تبني ضمن الواقع والتخيل أو ربما المنبعث من الذاكرة ، يقوم هذا النص على (المكان) وبه ينسج فضاءات من الأحداث والتأملات عبر الذاكرة ؛ فإذا بحثنا عن تكرار الأمكنة في هذا النص فإننا سنكتشف مدى طغيان (المكان) فيه ؛ فقد تكرر هذا المصطلح بصيغة المفرد (39) مرة ، وتكرر بالجمع ما بين (أمكنة ، وأماكن) تقريباً (9) مرة ، وهي صيغ عامة . في حين يحتشد النص بمسميات أخرى لهذه الأمكنة ما بين المدن (المنامة ، القاهرة ، بغداد ، بيروت ، دمشق ، الأردن ، موسكو ، دبي ، الشارقة ، أبو ظبي) بقراها المتعددة وفضائها المحسوسة (الشوارع / الطرقات ، والأنهار / البحار ، والمقاهي ، والأسواق ، والفنادق ...) ، ثم نجد (الوطن) بوصفه مكاناً يتغلغل في أعماق الأمكنة فيتكرر مصطلحاً ما يقرب من عشر مرات بين تأملات ومناجاة .

المكان في (ترميم الذاكرة) ليس هو ذلك المحسوس فحسب إنما هو بالإضافة إلى ذلك مكان (المحيط) الذي يطغى على النص لغوياً وسردياً ؛ ذلك لأن المكان - مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر أو الحالات أو الوظائف أو الأشكال المتغيرة ... تقوم بينهما علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة / العادية مثل الاتصال / الانفصال ...¹³ ، هذه الأشياء سنجدتها بارزة في النص ؛ فالمكان هنا يشكل مجموع العلاقات الممكنة التي تعمل بالمكان ومن خلاله بوصفه معطى

سيمياي لا مجرد سبك لغوي أو حتى فضاء . وعلى ذلك فـ (المكان) بوصفه علامة يشكل - عملية وحركة تربط بل أكثر من ذلك تشكّل ما يمكن أن نسميه ببراهين العملية التي تكون - في حالة النص المكتوب - إما كلمات أو متواليات من الكلمات (جمل أو فقرات) وتدرسها باعتبارها وحدات دلالية كبرى (سيميات)¹⁴ ، ولذلك سيحتفي التحليل هنا بالأمكنة في النص من حيث كونها أمكنة حقيقية محسوسة أو بصرية ، ومن حيث علاقاتها ووظائفها داخل النص ، ولن نحتفي كثيرا بـ (المكان السردى / الروائي) بوصفه معطى لغويا وسيميايا ؛ ذلك لأن إمكانيات النص (السيرة) يقدم (المكان) باعتباره الحقيقي أولا ثم باعتباره السردى ثانيا.

إن فكرة (المكان) في النص إنما تقوم على تجلياته وإسقاطاته على الحدث والتأمل وسبر الذاكرة لتكشف عن وصفه بالمعنى الدقيق للوصف ؛ ولعل سيطرة (المكان) على النص ليست فقط سيطرة على ما يشغله هذا المكان في الذاكرة وإنما أصبحت الذاكرة نفسها تعمل بالمكان ومن خلاله يقول (مدن) : - الذاكرة أشبه بالدهاليز وبالعرف المغلقة أو حتى المفتوحة ، نلجها ونحن نتحسس خطواتنا بحثا عن تلك الأشياء الوديمة التي خلفناها هناك ...¹⁵ ؛ إذ تحولت الذاكرة إلى أمكنة تحتفظ بالحدث بل وبالعواطف في أركانها المختلفة ، كما تكشف تلك الأمكنة عن إيقاعها ونظامها ، لتكشف إلى أية درجة تبدو مهمة لتضمن للنص وحدته وحركته في الوقت ذاته ، وكم يتضامن المكان مع عناصره الأخرى المؤسسة له .

إن السيرة الذهنية المنتجة للنص الواقعي - إن جاز التعبير - تحتوي على الجوهر ، هو ما يحدده ، إلا أن الصورة الكلية للشيء تطبعها الذات بواسطة الحواس داخل المخليلة على شكل (تأثر / شعور) سلبى أو إيجابى ، والأمر لا يتجاوز حدود (تأثر بشيء ما) - أي للشيء المدرك في كليته باعتباره (مبدأ للتفرد) الذي يكشف عن الشيء من خلال خصوصياته الملموسة البالغة الدقة



شكل (٠)

وبناء على ذلك فإن هذا النص يقدم هذه السيرة الذهنية عبر ثلاثة مستويات :

المستوى الأول : تواصل الذات الراهية مع الأمكنة ماضيا في أزمنتها المختلفة .

المستوى الثاني : تواصل الذات الراهية مع الأمكنة الآن بوصفها أيقونا مستعدى من الذاكرة .

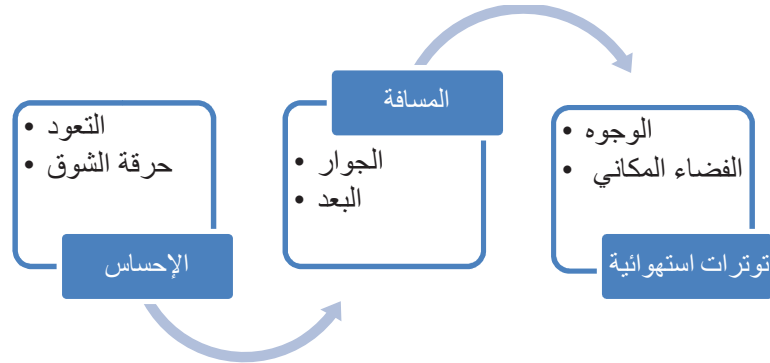
المستوى الثالث : تواصل الذات الكاتبة مع أيقون الأمكنة الماضية .

فهذه المستويات الثلاثة تنسج النص بعلامات لغوية (صيغ الخطاب المتعددة) ، وعلامات ميتالغوية تستعمل كل الممكنات الخطابية التركيبية والتكوينية في علاقات مكانية وزمانية وفضائية وتشخيصية ، وفي كل تلك المستويات يقترب النص من ذاته التي تشكل خطابه النصي العام .

ثالثاً : هوى الأمكنة واغوائها

- تظاهرات هوى المكان واغوائها

يتجلى هنا (المكان) بوصفه توترية استهوائية يسقط عليها النص أهوائه من خلال تكييف ذاتي بحت ، ثم تقوم لغة النص بتعميمه عبر مسار توليدي يكون (المكان) بؤرته حتى يصل إلى أفق المعنى العام من خلال تنويعات هوائية ... كما تتجلى من خلال الآثار المعنوية ترتيبات بنيوية من طبيعة أخرى ، إنها عدد بآلية تتجاوز التأليفات البسيطة للمضامين الكيفية التي تربط بينها وتستعصي إلى حد ما على التصنيف المقولي المعرفي¹⁶ ، ولذلك فإن الحديث عن هوى (المكان) هو محاولة لكشف العلاقة بين المعرفة والحس من خلال كشف العلاقات بين (المكان) والإحساس ، ولذلك سيعمد النص إلى إيجاد تلك العلاقات الممكنة مع الأمكنة من خلال توترات استهوائية واضحة ففي :إننا إذ نختبر هذه العلاقة الحميمة فإن أول ما نحن إليه أو ما يتبادر إلى ذهننا صورة الوجوه التي نحيا في ذلك المكان الذي خلفناه ورائنا ، وحتى حين نتذكر مرابع الذكرى فإننا لنشيد منها خلفية مكانية لما يشدنا إلى هذه الوجوه ، وفي هذه الحال نقفز إلى أذهاننا صور وتداعيات عن أشياء في منتهى البساطة والصغر ، بحيث إننا في الغالب لم نكن ننتبه إليها حين كنا بجوارها ، كنا نتعاطى معها أو نقيم علاقتنا بها بوصفها أمورا عادية تماما ، فنفاجأ حيث نبعد عنها أنها ليست كذلك ، إنها مكتنزة بالتعبيرات والرموز ، وقادرة على أن تشعل في نفوسنا حرائق من الشوق لا للأمكنة التي بعدت فحسب ، وإنما أساسا للزمن الذي أصبح ماضيا¹⁷ ، يتشكل هنا استهواء (المكان) عبر متواليات عدة يمكن توضيحها في الخطاطة الآتية :



شكل (2)

هنا يصبح المكان مرجعا يرتد إليه الإحساس عبر المسافة التي تتحكم به وبنوعه ، فالتوترات الاستهوائية في هذا النص تنشأ في نسق مكاني محدد وتتشكل عبر صور وتداعيات (بسيطة) لتحويلها المسافة (البعد) إلى أحاسيس استهوائية ذات بعد مختلف تماما.

لعلنا نلاحظ في النص السابق ونصوص (ترميم الذاكرة) عامة أن الخطاب يكون بـ(نا) الجمع في الأفعال والأسماء كلها فلو تتبعنا الخطاب القولي في النص السابق لوجدنا أفعالا من مثل :

(نختبر ، نحن ، نحيا ، نتذكر ، نشيد ، يشدنا ، ننتبه ، نتعاطى ، نقيم ، نفاجأ ، نبعد) ، هذه الأفعال نشأت في مضمونها عن خبرة ذاتية يسقطها النص على القارئ بوصفه متلقيا للخبرة المعرفية ، في محاولة لتقديمها بوصفها هوا .

يكشف النص عن علاقيتين واضحتين بين الحس / الذات ، وبين المكان / المعرفة هما : (الانجذاب) في مقابل (النفور) . فنوعا المكان : الأليف والمنقر يظلان يشجعان بعضهما في نموها ، لتحديد المكان كونه مؤثر عاطفي إيجابي أو سلبي ، يقول (مدن) : "والحق أن ألفة من نوع حميم تنشأ بين الإنسان والأمكنة التي يعرفها ، وإذا قدرت لك الحياة أن

تستقر في أماكن مختلفة ، فقد تلاحظ عجزك عن إقامة علاقة ود وألفة مع بعض المدن التي تأخذك الحياة إليها ، فيما تجد على النقيض من ذلك، أن الحياة لو حملتك يوماً على مغادرة بعض الأماكن فإنك تغادرها بغصة تقف في الحلق¹⁸ ، فالعلاقة التي يكشفها النص هنا هي علاقة بين الذات والمكان يقدمها الكاتب في خطاب مباشر للمتلقي (القارئ) يبدوها بتعميم يبدو خطابه التقريرية صارم وعام حينما يقول : «والحق أن ألفة من نوع حميم تنشأ بين الإنسان والأمكنة التي يعرفها...» وهذا الخطاب التقريرية يشترط (المعرفة) لإيجاد الألفة (الإحساس)، بينما نجد بعدها مباشرة خطاباً يجعل من هذه المعرفة افتراضاً عاماً بين الألفة والعجز اللذان يمثلان الإحساس الاستهوائي الذي نشأ من التوترات الاستهوائية التي أحدثها (المكان) في (الذات) فيغدو المكان بوصفه توتراً استهوائياً منتجا لنوعي الإحساس (الألفة ، أو العجز) وهما سيشكلان مع علامتين افتراضيتين للإحساس بالمكان فيتبادلان المواقع بناءً على حضور عناصر أخرى في النص هي المسافة والزمن ؛ ويمكن توضيح هذه العلاقة الاستهوائية التي يقدمها النص في:



شكل (3)

ثم يقدم لنا النص هذا العلاقات بين المكان (المعرفة) ، والألفة العجز (الشعور) في مثل : «المكان الجديد علينا ، حتى وإن بدا لنا للوهلة الأولى طارداً ومنفراً وانتابنا الإحساس بأننا عاجزون عن إقامة علاقة محتملة معه ، سرعان ما يعودنا على قبوله ، حين ندرك أن إقامتنا فيه طويلة . بمرور الوقت يتخفف المرء تدريجياً من تلك الأوصار القوية التي كانت تشده لمكان سابق ألفه واعتاد العيش تحت سنامه وبين ناسه ، لأن أوصار جديدة تنشأ مع المكان الجديد . وما كنا اعتقدناه طارداً وباعثاً على الريبة والقلق والخوف سرعان ما يتحول إلى مقيم علينا التآلف معه¹⁹ » ؛ فالمعرفة هنا ليست افتراضاً وإنما عنصراً مهماً في مقابل شعوري (الألفة ، والعجز) وهو يقدم بالإضافة إلى عنصر (الوقت) عنصراً جديداً مهماً هو تلك العلاقة التواصلية بين الذات والمكان فهذه العلاقة تمر بمراحل متعددة بحسب النص هي كالآتي :

المرحلة الأولى : هي مرحلة الصدمة بـ (المكان الجديد) وقد جاءت بالتمثلات القولية (طارداً ، منفراً ، طارداً ، باعثاً للريبة ، والقلق ، والخوف)

هذه المرحلة ستعمل على عرقلة التواصل الإيجابي بين الذات والمكان بحيث يصبح الطرفان في عجز تام .

المرحلة الثانية : هي مرحلة التعود على (المكان الجديد) ، والتي تتمثل في (الإقامة الطويلة) . وهي مرحلة (الحياد) التواصلية .

المرحلة الثالثة : هي مرحلة الاستبدال الشعوري التي تمر عبر وقت (تدريجياً) فيتحول الشعور بالعجز إلى ألفة . وهذا الاستبدال إنما ينشأ في مقابل تخلي الذات عن ألفة أخرى سابقة لـ (مكان سابق) ؛ مما يمكن أن يجعل شعور الذات بالألفة إنما هو شعور مستقر نحو المكان الذي يمثل (المعرفة) ، و(العجز) شعور طارئ فحسب ينشأ خلال التوترات المعرفية ثم ما يلبث أن يختفي . إن هذه المراحل المتعددة التي تمر بها العلاقة التواصلية بين الذات والمكان تكون علاقة تبادلية في

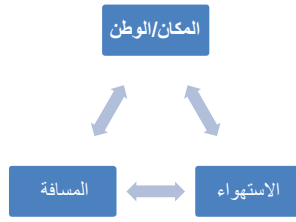
توتراتها الهويية فحينما تنفر الذات ، فإن المكان يقوم بإغوائها تدريجيا - بحسب النص- بل (سرعان ما يعودنا على قبوله) حتى (يتحول إلى مقيم علينا التآلف معه) .

هذه العلاقات التوتيرية بين (المكان) ، و(الشعور) نجدها أيضا في :هل يمكن تقسيم المدن إلى مدن رؤوف وأخرى قاسية؟! . هناك مدن تأسرك من أول وهلة ، حين ينتابك شعور أشبه بالحب من أول نظرة ، وهناك مدن تصدك منذ البداية ، فتشعر فيها بالوحشة والغربة حين تلمس أن الرتابة وتجهم الوجوه وغلاظة سلوك البشر هو ما يغلب عليها . ويقال أن المدن لا تبوح بأسرارها مرة واحدة ، بدليل أن المدينة التي لا تحبها من أول نظرة قد تفصح لك مع الوقت عن جوانب خفية لم تلاحظها في البدء ، وهناك مدن قد تبهرك في الانطباع الأول ، تماما كامرأة فاتنة ، ولكن ما أن تقترب منها في التفاصيل حتى تتيقن من زيف انطباعك²⁰ ، وهنا يتحول الخطاب إلى الآخر (تأسرك ، ينتابك ، تصدك ، تلمس ...) ، إنه توجيه نحو تلك العلاقة التواصلية بين (الأخر) و(المكان) ، وهو إحالة على تلك السيرورات التواصلية المتتالية المعقدة في مراحل إغراء وإغواء المكان للذات أو النفور منه ؛ فالمكان في هذا النص يتخذ دور الغواية للذات من ناحية أو التنفير من ناحية أخرى . أما الخطاب النصي للآخر إنما هو محاولة لإسقاط هذا الإغواء المكاني عليه، فهو يبدأ بسؤال يحمل خطابا عاما (استفتاح/استفزاز) وبعدها مباشرة إجابته له - أي للآخر- فالخطاب هنا من (الذات المنتجة) نحو (الأخر) بهدف تحقيق الإغواء.

إن المكان (المعرفة) في هذا النص يؤكد شعور (العجز المؤقت) ، كما يقدم أيضا شعور (الألفة) المؤقت في متواليات تواصلية ليفيض الهوى عن الذات ويتخذ شكلا سلوكيا / اجتماعيا من خلال سلسلة من الانشطارات التي تقود إلى إنتاج أو إعادة إنتاج برامج (العجز) و(الألفة) ؛ فهذه البرامج لا تستقر ولا تقف سيرورتها عند الوجه المرئي للتواصل بين أو مع (المكان) وإنما تقدم انشطارات عدة غير مستقرة تنشأ من هذا التواصل لتصل إلى (الألفة) بعد (العجز) أو (العجز) بعد (الألفة) .

سنجد هذا التصور الاستبدالي لاستهواء المكان في مواضع عدة من النص من مثل : " هذا النوع من الغربة يندرج تحت عنوان الغربة الخارجية ، الغربة عن المكان ، عن مرابع الذكرى الأولى ، عن الناس الذين معهم وبهم تشكلت تفاصيل الحياة السابقة ، الحياة الأولى ... ولكن الناس كما تدل التجارب ، سريعو التكيف والتآلف مع الأمكنة ، ثمّة قدرات خفية مدهشة لدى البشر لإقامة علاقة مع الأماكن الجديدة التي تأخذهم إليها الحياة ..."²¹ ، فهو نص لا يشترط التدرج السابق لاستبدال هوا مكانيًا بآخر ، فهنا نص يقرر بواسطة (الخبرة) قدرة الذات على (سرعة) التكيف والتآلف مع الأمكنة ضمن قصديّة ذاتية صريحة ، لتكون الذات فاعلة وبادئة في توترات هوى الألفة مع المكان .

هذا التصور في علاقة الذات بالمكان نجده في موضع آخر يقرر أن (العجز) هو الشعور الثابت المستقر حيث لا وجود لألفة جديدة في مقابل ألفة سابقة ففي قول (مدن) : " إذا فقدنا المكان طويلا ، خاصة إذا كان وطننا أو حتى مجرد مسقط رأس ، فإنه يتحول إلى حلم إلى أسطورة ، إلى فردوس مشتهى أو مبتغى ، بحيث أن صورة المكان المفقود تصغر أمام صورة الحلم الذي كوّنه عنه أو من وحيه ، لكن كيف يحدث أن يعجز المرء عن وصف أو مدح المكان الذي يحبه حين يكون داخله ، كيف لا يستطيع اختبار علاقته بهذا المكان إلا حين يبتعد عنه طوعا أو كرها؟"²² ، فهذا النص يقدم لنا علاقة مختلفة تماما ؛ فمراحل العجز والألفة السابقة ليست لها وجود حينما يكون (السابق) هو (الوطن) ؛ فالاستهواء للمكان هنا استهواء من نوع مختلف ، وعنصر (المسافة/ البعد) أيضا له وظيفة تواصلية مختلفة ؛ ذلك لأن هذا العنصر هو الذي يمر عبره الاستهواء للمكان إذ يؤدي وظيفة المحفز لاشتغال الاستهواء فكلما استمر فقدان المكان طويلا كلما تحول (المكان) إلى (حلم ، أسطورة ، مشتهى ، مبتغى) ، وهذه العلاقة المستمرة يمكن التعبير عنها بالخطاطة الآتية :



شكل (4)

ثم لن يقوم عنصر (المسافة) بوظيفة المحفز فحسب بل سنجد أنه يتحكم بالعلاقة التواصلية بين (الذات ، والمكان) فقرب المسافة - بحسب النص - تنتج عجزاً في استهواء المكان واستحضاره بصرياً (وصفاً) في مقابل البعد عنه .

إن هذه العلاقة التواصلية بين (الذات والمكان) تتحول إلى علاقة ذات أبعاد جديدة من مواضع (خارجية / داخلية) لتتخذ المسافة بعداً فضائياً جديداً . إنه تواصل بين (الذات / الذات) ، و(الذات / المكان) ، وعلى الرغم من ذلك فهو تواصل لا يخرج عن استهواء المكان ؛ فالمكان سبب في إحداث هذين النوعين من التواصل ؛ نجد مثل هذا التواصل في مثل قول (مدن) : «مشكلتنا ليست مع الغربة الخارجية . إن ما ينخر نفس الإنسان من الداخل ، ما يربكها ويوترها هو الشعور العميق بالغربة الداخلية ، غربة الروح . بل لعل الإنسان فيما يشبه التحايل الذهني الذكي يقيم نوعاً من التآلف الظاهري الخارجي مع المحيط رغبة خفية منه في إخفاء غيبته الداخلية ، منفاه الداخلي الذي لا سبيل للخلاص منه إلا في هنيهات من العمر ، هي لحظات التحقق النفسي والعاطفي والوجداني ، وليس من طبيعة هذا النوع من التحقق أن يكون مقيماً أو دائماً ، إنه سريع التبدد والزوال ، مفرغاً مكانه لقلق جديد . مع الوقت يسوي الإنسان أمر غيبته الخارجية ، لكن من يسوي أمر غيبته الداخلية ، منفاها الداخلي ، الذي يزداد وحشة؟^{2 3} ، فهو تواصل (ذاتي / داخلي) ، و(ذاتي / خارجي) ينشأ عبر سيروية تواصلية سببها الاستهواء المكاني ، غير أن هذا الاستهواء سينشيء تغير في (الألفة) و(العجز) ليشتركا معا (خارجاً ، وداخلاً) ضمن علاقة استهوائية جديدة يمكن التعبير عنها كالآتي :



شكل (5)

إن توتر الذات نحو (المكان) هنا سيؤكد وينبطل في الوقت نفسه انعطافات الاستهواء كما لو أنه يتأرجح بين الانصراف في المكان (خارجياً) ، والانبطار عنه (داخلياً) ، وبالتالي سيمكنا تمظهر الهوى هنا من الكشف عن هذه اللا استقرارية بين (الألفة) و(العجز) بوصفهما تمظهران يتقدم الأول نحو الخارج ويتراجع الثاني إلى الداخل ، لتكون (الألفة) تمظهراً عاماً قصدياً بينما يكون (العجز) تمظهراً خاصاً غير قصدي .

إن نص (ترميم الذاكرة) يحتفي بهوى الأمكنة بل يحدد إمكانات وتمظهرات هذه الأهواء ، فإذا تأملنا النص : «المدن التي تقع على البحر أو يشطرها نهر جميل أو كبير هي دائماً مدن باعثة على الحنين ، والأثر نفسه تتركه الغابات والمسطحات الخضراء ... شعرت ساعتها أنني في واحدة من الأماكن الرؤوف التي تأسرك من أول وهلة ، وبدأت أهيئ نفسي

لإقامة طويلة في الإمارات ...^{2 4} . إنه تجسيد لتلك العلاقات التواصلية الاستهوائية مع الأمكنة؛ إذ يقدم المكان بوصفه علامة استهوائية ذات أبعاد دلالية متعددة ، يحدد دلالات ويقدم تأملات هوية في المكان لتصبح الذات والمكان (الموضوع) لحظة إدراجهما ضمن المستوى السردى (عاملين أصليين) ... ، والتعامل معهما باعتبارهما مقولتين...^{2 5}

إن الخطاطة الآتية تكشف البنيات السجالية التعاقدية بين (المكان) و (الشعور) ، من مبدأ ذلك التعايش غير الثابت بين البنيات التعاقدية والبنيات السجالية ضمن الاستهواء ؛ فهي علاقات تقوم على التقابل والضيديّة وهذا التقابل يشغل باعتباره علاقة سجالية بين الذات والأمكنة وهي :



شكل (6)

إن الطاقات تشكل المكانية وتجعلها ديناميكية ونلاحظ أن كل حالة من حالات الضوء تميز المكان الذي يمكن للقيمة الاستقرار فيه ...^{2 6} ، وهذا الاستقرار لا ينشأ من طاقات التشكل هذه فحسب بل أن التوافق مع البنيات التعاقدية مع المكان سببا في تشكل هذا الاستقرار الهوي ، ذلك لأن المنافسة هنا تغدو عارضا تعاقديا بين الذات والمكان ، وسرعان ما تستقر هذه المنافسة للانتقال إلى الفعل السلوكي (الاستقرار) بوصفه حالة هوية ناتجة عن المكان وله .

هذا الضوء الذي تشكله طاقات (المكان) في إغوائها لـ (الذات) يظهر في نصوص من مثل : "... بعد يومين أو ثلاثة انتقلت من دبي إلى الشارقة ، وفي أحد أيامي الأولى اصطحبتني خالد فيروز ، البحريني المقيم في الإمارات بجولة في السيارة ، بدأنا بالمرور بمحاذاة الشاطئ الجميل الممتد بين الشارقة وعجمان ، وما أن أبصرت عيني امتداد البحر وجماله وزرقة مياهه ، حتى قلت في نفسي : لن أغادر هذا البلد أبدا"^{2 7} ، إنها طاقات تقوم بمهام التكييف الهوي فلا تدع للذات بدا من التوافق معها في سبيل الوصول إلى الكينونة الموحدة للهوى المتبادل بينهما .

وهكذا سجد في (ترميم الذاكرة) كل تلك التظاهرات الهوية بين (الذات) و(المكان) التي تشكل التصاورات في ذاتها وفي الآخر لتتم عبرها الحمولات الكيفية للهوى ؛ فخارج هذا التمثيل الهوي تعد الذات منفصلة ولا تتصل سوى إن كانت محققة لوجودها الحقيقي ضمن هوى المكان وخلاله ففي :مرة على شرفة غرفة في فندق شيراتون القاهرة ، وبعد أن أعددت حقبي للسفر وقبل هنيئات من مغادرة الغرفة ، خرجت إلى الشرفة لأملأ ناظري بمشهد النيل الخالد . كان الوقت غروباً ، وكانت الشمس تتوارى والجو بارداً ، والنيل بكل خلوده وجبروته الذي يخفق هدوءه الخارجي الغادع في إخفائه ينبسط ممتداً خلافاً ، مدهشاً ، وعلى سطح ماء المتماوج تنعكس الأضواء ، مشكلت ما يشبه الحكايات الأسطورية^{2 8} ، تنمدج (الذات) في تمظهرها وتتصل بـ (المكان) ضمن تصاورات وجودية بصرية حسية (الغروب ، الشمس تتوارى ، الجو بارداً ، ينبسط ممتداً ، تنعكس الأضواء) ؛ فكل تلك التصاورات تشغل كونها حمولات هوية إغوائية للذات التي تتوافق معها في المخيال الهوي في أفق يولد حالة نفسية ضمن خصائص المستوى السيمي – سردي التي تظهر في (مشكلة ما يشبه الحكايات الأسطورية) .

– تنويعات هوى المكان

إن المأل في تعريفه باعتباره انتقالاً من حالة إلى أخرى ، أو سلسلة من تغيرات الحالة²⁹ ، يعتبر توليفاً قابلاً لاستيعاب التوتر الاستيثاقى بين الجذب والنبد ؛ فإذا نظرنا إلى التوتر على اعتبار ذلك الأثر الكيفى للانشطار فى فضاء الاستهواء فإن المأل سيصبح ذا تنويعات متباينة ما بين الاتصال والانفصال عن الهوى (المكان) ؛ هذه التنويعات تربط بين متغيرات التوتر فى فضاء الاستهواء المكاني . إننا فى (ترميم الذاكرة) أمام نص يعتنى بـ (المأل) لهوى المكان ، وإذا كان مظهر الهوى يستغرق (الألف) ويعتني بها فى استقرارها أو منافستها لتمظهر (العجز) فإنه هنا يكشف عن تنويعات وأساليب سيميائية متعددة ؛ إنه (فقد) المكان وخسارته بوصفه هوا ، وهذا الفقد يأتي ضمن علاقات توتيرية منشطرة عن (الألف) ؛ ففي قول (مدن) : .. لم تطل فرحتي كثيراً . ففي غمرة هذه الحياة الثرية ، العافلة ، الصاخبة ، الحميمة حدث ما كنت أخشاه ، أن أترك القاهرة قسراً . كان ذلك اختياري الأول فى فقد الأمكنة . لم أكن قد اختبرت بعد معنى أن يقتلع الإنسان من مكان يحبه ويألفه وتشده إليه قوى الوشائج ...³⁰ ، إن هذا النص يقدم تنويعات عدة (للألف) إنها ؛ (فرحتي ، حياة ثرية ، حافلة ، صاخبة ، حميمة ، (ومكان) يحبه ، يألفه ، تشده إليه قوى الوشائج) . وكل تلك التنويعات تمثل توترات (الألف) وانشطاراتها . وهذه التنويعات ستواجه اختلالات عكسية ومنافسة مع (العجز) وهو هنا ليس عجز عن الألف وإنما عجز عن التخلي والتراجع عنها لينتج لنا برنامجاً جديداً تتحد فيه (الألف) بـ (العجز) فى خبرة اجتماعية نفسية هو (الفقد) ويمكن التعبير عن ذلك بالخطاطة الآتية :



شكل (7)

يمكن أن نعتبر أن هذه التنويعات تكشف عن الأساليب السيميائية ؛ أسلوب الألف بتنويعاته المتعددة ، وأسلوب العجز عن تقبل غير (الألف) مع المكان ، وأسلوب الفقد الذي تشكل ضمن الألف والعجز بل وبهما معا . وسيستمران معا فى التعبير عن تجليات (الفقد) التي تبرز فيها الدلالة والقيمة ويمكن أن نلاحظ ذلك فى مثل قول (مدن) : ظلت القاهرة مدينة وتاريخاً وناساً وحالاً من الحراك الثقافى – السياسى ، أكثر جاذبية لى . وحين كنت أشاهد فىلماً مصرياً فى السينما أو على التلفزيون وأنا فى بغداد أحاول استعادة الأماكن والشوارع والنهر الذي يضيئ على المدينة جلالاً وروعة ، وكنت أحس بشيء من الأسى ولوعة الفقد³¹ ، هكذا تبقى سيرورة العلاقة التواصلية الهوية بين (الذات) و(المكان) فى الاشتغال ضمن عنصرى الزمان والمسافة فى تجليات مباشرة أو غير مباشرة للكيفيات ؛ فالتنويعات التي سينتجها (الفقد) هنا هي ؛ (الأسى ، واللوعة) ، وهي تنويعات لم تكن متوفرة إلا فى انصهار (الألف) و(العجز) معا ضمن السياق الزماني الجديد .

إن التصور التجريدي لفهم انصهار (الألف) و(العجز) معا لابد من حضوره لفهم التناغم والمواءمة بين نسبة كل منهما فى الآخر والتي تمثل (الأساس) الذي سيشكل قوة الإحساس بـ (الفقد) فالإحساس ليس كىفية لوعى لأن الكىفية هي

أصلا تصور، ولكنه من (متعلق - وعي) أو (مضاف - وعي) أي نوع من الفرق وضرب من ظهور الوعي الذي لا يمكن الإمساك به...^{3 2} ، وعلى ذلك فإن (الوعي) في مواجهة (الفقد) سيعيدنا إلى برنامج الاستبدال الشعوري بين (الألفة والعجز) ففي قول (مدن) : "حوصرت بيروت لعدة شهور ، وأخرجت المقاومة الفلسطينية من هناك حيث عبر المقاتلون الفلسطينيون البحر إلى منافذ بعيدة جديدة . وكان أن وجدت نفسي واحدا من الذين فقدوا بيروت كمقر لهم وكفضاء روحي ونفسي عزيز بات عصيا . كانت بيروت هي الفقد الثاني الغالي بعد القاهرة ، وكان علي أن أوطن نفسي على الإقامة في عاصمة عربية أخرى هي دمشق"^{3 3} ، ففكرة (التوطين) في هذا النص هي تنويع من تنويعات الاستبدال الشعوري الذي سيحول (العجز) إلى (ألفة) جديدة ، مع التأكيد بأن (التوطين) سلوك واعى ضمن سيرورة التواصل الهووي ، فهو يقتضي تنظيم أو إعادة تنظيم الحالة الشعورية لتشكيل الهوى في السطح أي في مستوى التجليات الخطابية التي تقدم (الألفة) ، ليصبح هوى المكان الجديد مقابل هوى المكان السابق .

وفي ذلك يؤكد النص على (العجز) عن التحرر من (الألفة) مهما بعد السياق الزماني لأن هناك تجليات أهواء بيذاثية مرتبطة ومتعلقة بالمكان ؛ فالهوى هنا ليس للمكان بوصفه (شيء جامد) وإنما لكونه (فضاء) نفسيا ، أو اجتماعيا لسيرورات تواصلية لا تنفصل عنه فالهوى هنا هوى مركب لفضاء بصري ينتج تمظهرات وبالتالي تنويعات جديدة للهوى ؛ ولناخذ شاهدا على ذلك ما جاء في النص : "ولكن المدن أمكنة . والأمكنة هي البشر بالدرجة الأولى ، فقد تشدك لمدينة ما ذكرى جميلة ، مثلا إنسان عزيز على القلب يقيم فيها ، أو ألفة نشأت مع الوقت ، ولا سبيل للتحرر من هذه الألفة..."^{3 4} .

إن (الألفة) التي "لا سبيل للتحرر.." منها هي تنويع من تنويعات (الفقد) ؛ لأن ذلك يعني موقفا من مواقف الذات نحو (المكان / الهوى) وتمظهر من تمظهرات سيميائية العاطفة التي تتم "... دائما من خلال دراسة ما ينتجه الجسد الإنساني في محيط علاقاته بالعالم"^{3 5} . إنها - أي (الألفة) تقدم هنا (عجز) الذات عن التخلي عن هوى المكان رغم المسافة والزمان ، لأن هذا الهوى مرتبط بتجليات أهواء أخرى بصريّة ونفسية واجتماعية وهذا ما يقرره (مدن) حين يقول : "خسارتنا للمدن ليست سوى تجل لخسارات أشد فداحة"^{3 6} .

يكشف لنا النص أيضا تنويعا آخر (للفقد) هو (التغيير) ، وعلى أن العلامة هي "شيء يقوم مقام شيء آخر"^{3 7} ، فإن هذا التنويع يشكل علامة جديدة تقوم - في النص - مقام (الفقد) ففي : "تحملنا الحياة على أن نغير أماكن سكنا مرة أو أكثر ، وبالنسبة للبعض مرات ، وللبعض الأخر مرات كثيرة أو عديدة . تتعدد الأسباب ولكننا في الأخير نجد أنفسنا محمولين على ترك بيوت ألفناها لبيوت جديدة علينا أن نخلق معها ألفة ونؤسس معها علاقة ونبنى ذاكرة للمستقبل . وحتى حين يتم أمر انتقالنا إلى مكان جديد بإرادتنا الحرة، برغبتنا في تغيير سكنا القديم بسكن جديد فإننا لا ننجو من الشعور بشيء أقرب إلى الأسى أو حتى الفقد لأننا نخلف وراءنا مربعا من مراع الذكري"^{3 8} ، يقدم لنا النص هنا تجليا آخر من تجليات (الفقد) هو ليس بالضرورة حدث (إكراها) ولكنه سيؤدي إلى النتيجة ذاتها (الفقد) . هذا (الفقد) قائم على الممارسات الإجرائية للهوى ويروم إلى تحقيق فعاليته من خلال عودة إلى برنامج (الاستبدال) . استبدال (العجز ، بالألفة) واعيا وإراديا ، إنه هنا طوعيا يعتمد على (تغيير) هوى بآخر (مكان سابق ، بمكان جديد) ، وعلى الرغم من ذلك فإن السيرورة التواصلية بين (الذات / المكان) ستواجه تشويشا هوويا وقلقا موجه نحو الإرادة الطوعية من خلال الصور البصرية والتنويعات المتعددة للهوى والتي انتجها مدة مساره الهووي فيما يشبه الدينامية الذاتية للتوتر الظاهر من خلال آثار الهوى وقوته وسيطرته على الفضاء التوتري ؛ فنجد أن هذا الفضاء يظهر بارزا في مثل : "... ليست الأشياء وحدها ما يشد ويبعث في نفسك كل هذا الدفق من المشاعر ، وإنما الحيز الجغرافي للبيت الذي

تفاديه . في كل زاوية من الزوايا ثمة ذكرى ، وحين يرفع العمال المقاعد على أكتافهم ربما تخطر في ذهنك الوجوه التي ألفت أنستها على هذه المقاعد . يمكن للمكان أن يكون صديقا طيبا ، لذا فإن شعورك بفقده يضاهي شعور فقد الصديق الطيب . وتذهل حين تكتشف أن الذاكرة مخادعة لهذا المقدار ، حيث أنها تختزن في قاعها من التفاصيل والوجوه والأحداث ما يدهشك حين تجعلها تتقافز أما ناظريك^{3 9} .

رابعا : بؤرة الأمكنة ومركزيتها

- حضور الأمكنة وغيابها أيقونيا

إن تظهر المكان وتمركزه يتحدد بما يشكله الفضاء المكاني في النص من علائق وتجسيدات ضمن رؤية الذات (الخبرة) والذاكرة (الصورة) ، إلا أنه لا توجد قاعدة واضحة تحكم العلاقة بين (الذات) و(المكان) هنا إلا من حيث مدى تمركز الأخير في الذاكرة (الصورة) ضمن السياقات المختلفة ، ولفهم وتحليل مثل تلك العلاقات فإننا سنعامل المكان بوصفه (أيقونا) وهو يتخذ هذه الصفة كونه بالنسبة للذات المرسلّة صورة مختزنة في الذاكرة لها أبعادها الزمانية وخلفياتها وأركانها وشخصها وأحداثها ، ثم يقدمها لنا النص - بوصفنا متلقين - في سياق بصري أيضا ؛ وعلى أن الأيقونة هي علامة تحيل على موضوعها وفق تشابه يستند إلى تطابق خصائصها الجوهرية مع بعض خصائص هذا الموضوع^{4 0} ، فهي تشبه الصور الفوتوغرافية التي تصور لنا المشهد ، وكذلك الرسم والرسم البياني .

إن الأمكنة بوصفها أيقونات تشتغل وفق عرف يحكم صيغ إنتاجها وتشكلها ، إنها هنا صورة أيقونية مخزونة في الذاكرة ضمن علاقات ومشاعر ودلالات ؛ وعلى ذلك فإن الأمكنة هنا تستحضر بصريا ضمن جدلية الحضور والغياب ؛ يقول مدن : حين نكون في المكان الذي نحبه ونألفه فإننا نكتفي بأن نعيش فيه . إننا لا نتذكره ولا نكتب عنه إلا عندما نكون بعيدين عنه . سيرة المكان لا تنجز ولا تكتب إلا في مكان خارجه . إنك لن تستطيع أن تصف المكان وأنت فيه ، لأنك إذ تكون داخله لا تكاد تلحظ تفاصيله ودقائقه التي تتألف معها وتلمسها كل ساعة أو تمر عليها كل يوم^{4 1} ؛ فهذا النص إذ يقرر أيقونية المكان كونه معطى بصريا فإنه في الآن نفسه يقدم جدلية (الحضور ، والغياب) في الأمكنة لتأكيد فكرة مخاطبة الأمكنة وتصويرها وإعادة إنتاجها دلاليا ونفسيا . وعلاوة على ذلك يحدد مركزية الذات في المكان وعنه ؛ إنه يراوح بين (الحضور) و(الغياب) . حضور (الذات) داخل المكان وخارجه ، فحتى تقوم الذاكرة بإعادة تشكيل الأيقون (المكان) فإنها - بحسب النص - لا بد من الغياب عنه والابتعاد ، وهو بالضرورة يفضي إلى الحضور خارجه في مكان آخر ؛ ولذا فإن النص يطرح مصطلحي (الخارج) و(الداخل) في مقابل (الحضور) و(الغياب) وهذا يعني أن صراع (الذات) داخل الأيقون (المكان) أو خارجه هو صراع بين الداخل (المحدد) والخارج (الشاسع) إنه صراع مرتبط بعمليات التحويل والتكثيف الأيقوني ؛ فالذات تكون (حاضرة) داخل المكان في حالة الحضور فيه ، وتكون (حاضرة) داخل الأيقونة في حالة الغياب عن المكان نفسه ، والحضور في مكان آخر خارج المكان الأول ؛ وعلى أن العلامة تتأسس على مقولات التشابه والاختلاف^{4 2} ، وهو طابع يبدو خادعا إلا أنه متماشي ومتوافق مع أيديولوجية الذات ؛ فالذات هنا تحول تمثيلاتها إلى ذوات أخرى في سياق التواصل وتنظر إلى الأيقونة الجديدة الحاضرة في الذاكرة على أنها وليدة الماضي ، إنها - أي الذات - لا تحتاج لمثير لاسترجاع هذه الأيقونات من الذات ، بل تكتفي باستدعائها . إن نص (ترميم الذاكرة) يقدم هذا الاستدعاء في معظم أيقونات التجلي المكاني في سيرة الذات ، إلا أنه استدعاء يعتمد على العلامات الحسية، أو البصرية فإذا قرأنا تلك النصوص التي تصور الوطن مثلا في مثل :

الأيقونة الأولى :

- الوطن من السماء! أن ترى من فوق من علو . أضواء تتلألأ في خطوط دائرية وأخرى عمودية ، ومن تلك الأضواء تستطيع أن تحدد الفاصل بين البحر واليابسة . يبدأ البحر حيث تبدأ العتمة ، أما اليابسة فإنها تسبح في الأضواء ، تشع بالنور ، قبل عشر سنوات استغرقني التفكير ذاته عما خلفته في وطني ؛ صباي وغرقتي المتواضعة في بيتنا القديم ، وبعض كتب وصور ورسائل حب أول لم يكتمل^{3 4}.

هنا تتشكل الأيقونة (المكان) من مستوى بصري أعلى (مكان الذات) إلى مستوى بصري أدنى (مكان الأيقون) ليشكلان معا محورين (عمودي وأفقي) ؛ فالعمودي هنا إسقاط بصري وخبرة ذاتية بالمكان بل وعلاقة حسية عميقة لأنه (وطن) ، أما الأفقي فهو تأطير للمكان (الأيقونة) ، وهذا التأطير سيقود الذات إلى استدعاء أمكنة أخرى (البيت ، الغرفة) ، وأيقونات أخرى (صور ، كتب ، رسائل) ، وهذا التشكيل يمكن التعبير عنه في :



شكل (8)

الأيقونة الثانية :

- ... كان لابد من وقفة أخرى في مطار الوطن . الوقت كان نهارا ، وكان الفصل صيفا والشمس ساطعة . ولأن فترة التوقف تستغرق ساعات ، فقد رحت أتجول في أرجاء المطار . من خلف الزجاج بدت أشجار النخيل الباسقة في محيطه ، على بعد مرمى النظر . أحسست في تلك النخيل شيء من طفولتي ، من صباي ، لأنها ذكرتني بواحة النخيل التي كانت تجاور البيت وعيت فيه على الدنيا وقضيت سنوات الطفولة والصبا . الوطن من وراء الزجاج ! أن ترى تراب الوطن ونخيله وبيوته وبعض شوارعه ولكن من خلف الزجاج . لا تطأ قدمك ترابه ، ولكن عينيك تراه ، ليستثاري في نفسك ولع وغصة^{4 4}.

النظر هنا في مستوى البصر ، ويشغل (الزجاج) في تأطير الأيقونة (المكان) وتصويرها ، ونجد أن (النخيل) يشغل بوصفه أيقونا مكانيا آخر ضمن أيقونة (المكان/ الوطن) ليثير استدعاء أمكنة أخرى مشابهة (النخيل المجاور للبيت) بشكل معرفي ، ثم تثير الأخيرة أثارا نفسية عميقة (ولع وغصة) ، ويمكن التعبير عن هذا التشكيل في :



شكل (9)

الأيقونة الثالثة:

- اليوم السابع والعشرون من فبراير 2001 لن تكتفي برؤية الوطن من السماء ، من علو ، ولا من وراء زجاج المطار .

4 5

ستخطو برجليك إلى ما هو أبعد من ردهة هذا المطار ، ستتجاوز بوابته الرئيسية ، وتخرج إلى الشارع وتشم هواءه^{4 5}

هنا يتشكل التواصل حسيا وبصريا ؛ فهو تواصل مباشر تماما بين (الذات) و(الأيقون). إنه تواصل منتج للدلالات وللنصوص بعده فهو يمثل انتقال الذات بين (الخارج) و(الداخل) بين (الغياب) و(الحضور).

في هذه الأيقونات الثلاث تظهر (الذات) في مستوى حسي (عمودي أو أفقي) ، وتظهر الأيقونة (المكان) في تأطير بصري يعتمد على حضور (الذات) خارجه في حالة التواصل البصري (في الطائرة ، وفي المطار) ، وداخله في حال التواصل الحسي (الخروج من المطار إلى الشارع) ؛ ولذا فإن المسألة السيميائية المتعلقة ببناء المضمون باعتباره مدلولاً ترتبط ارتباطاً وثيقاً ... بمسألة الإدراك الحسي وبالمعرفة باعتبارها إضفاء لمعنى على التجربة^{4 6} ... ، فالوطن باعتباره (أيقونا مكانيا) يشكل دلالات خاصة للذات المواطنة ولا تتشكل مثل تلك الدلالات عند الذوات الأخرى ، فالمعرفة والإدراك الحسي يشكلان هذه الصور البصرية والحسية لدى الذات في حال التواصل مع (المكان / الوطن) .

إن جدلية (الحضور) و(الغياب) (داخل) المكان و (خارجه) هي من يؤسس أيقونيته في الذاكرة وتحوله من محسوس إلى نفسي ؛ وهي بذلك تضعه في الذكرى ثم تبثه في حالات خطابية مباشرة أو غير مباشرة ، قولية أو لمسية ؛ ذلك لأن الأيقونة ليست علامة شبيهة بالموضوع الذي تعينه لأنها تعيد إنتاجه ، إنها كذلك لأنها قائمة على صيغ خاصة لإسقاط انطباعات إدراكية (بروز ، استعمال لجزء من الموضوع ، نقل ، الخ) من خلال التذكير بتجربة لمسية حسية ... ، أو من خلال لعبة سيرورة حسية مركبة هي التي تفرض النظر إليها باعتبارها شبيهة بتلك التي أحس بها في حضور الموضوع^{4 7} ... ، فإعادة إنتاج المكان في الأيقونة هو بالضرورة إعادته ضمن سياق خاص ومحدد ومن زوايا معينة ، ثم إعادة تشكيل الإحساس والشعور ضمن تلك الأيقونة المستعادة ، والمشكلة بصريا ، هذه الأيقونة - بحسب النص - لا تستعاد فقط بفضل (الحضور) و(الغياب) أو بفضل (الداخل) و(الخارج) لأنها لا بد أن تمر بمثير بالضرورة ، وهذا المثير إما حسي أو بصري . ولإيضاح ذلك نعد إلى تفصيل أيقونة المكان (البيت) مثلاً كما في الصور الأيقونية الآتية:

الأيقونة الأولى :

... وقفت أولا في فناء البيت ، قفزت إلى ذهني لحظتها ، ذكرى شمس الشتاء الوديعة في هذا الفناء . الأشياء تحت بقعة

الشمس الشتوية مختلفة . كأنها تسلط بؤرة الضوء على أمر بعينه ، على زاوية بعينها وتهمل الباقي ، فتبدو الأشياء تحتها مختلفة ، كأن لها أبعاد أخرى لا نراها عادة^{4 8}...

تبدو الذات هنا (داخل) المكان (البيت) - مع التأكيد أنها خارجه أيقونيا . هي إذن تتواصل معه مباشرة إلا أنه تواصل ذا طابع بصري بالدرجة الأولى . يستدعي هذا التواصل أيقونات بصرية أخرى هي تأملات في أركان المكان ومناطق الضوء فيه ؛ فالضوء هنا يشارك مباشرة في التوازن التكويني للمنظر الأيقوني ، فبينما تقف (الذات) محايدة في العملية التواصلية هذه تشتغل (العين البصرية) في الإشراف على تحولات الأيقون من خلال تتبع " صور انتقالية تسمح كروابط معقدة غير مستقرة بالعبور من عنصر إلى آخر^{4 9} " ، من جانب آخر يشتغل التواصل مباشر هنا في استدعاء هذه الصور وتشكلها في حال غيابها عن المكان الآن وحضورها في الأيقون (في الذاكرة) .

الأيقونة الثانية:

حين وقفت في زاوية غرفة البيت العتيق الذي نشأت فيه ولهوت في فناءه وتدثرت بلحاف وقاني برد ليال بعيدة ، وجدت ها خاوية ليس من الأشياء فقط إنما من المعنى الذي شكلته في ذاكرتي . إنها في الحق لا تبدو زاوية عادية شأنها شأن كل الزوايا المتشابهة في الغرف الأخرى ، لأنني مشدود إليها بعلاقة خاصة ، لكن هذه العلاقة ذاتها ظلت مبهمّة . عدت أدراجي من حيث أتيت دون أن أشعر بأن حيني قد أشبع ، وإنما أحسسته قد تفاقم وتضاعف . ساعتها حرت ما إذا كان هذا شعور اللحظة أم أنه شعور مزمن سيلازمني طويلا ، وربما ما حييت ، كما لازمني (حين أول مرة) الذي قصدت المكان لأبرأ منه فوجدته عصيا على العلاج . وسأحار أيضا ما إذا كان هذا الذي أنا بصده من شعور هو ذاته الحنين القديم وقد ارتدى شكلا جديدا أم أنه حنين آخر جديد؟! ⁵⁰

إن الوقوف هنا كما في النص السابق تشكل لزاوية تركز (الذات) في المكان ، وهذه الزاوية هي التي ستحدد تأطير المكان بصريا وتحويله بعد ذلك أيقونا ، ثم يقارن النص بين أيقونتين أحدهما معرفية تتمثل في معرفة الذات بالمكان (غرفة البيت) ، وصورته المعرفية (نشأت فيه ولهوت ، وتدثرت...) ، والثانية أيقونية بصريّة وتتمثل في الرؤية المباشرة للمكان (وجدتها خاوية) ، ثم تتنافس هاتان الأيقونتان في نفس الذات وتتحولان معا إلى تعارض شعوري ونفسي!

الأيقونة الثالثة:

"... بعد الفناء ولجت غرفتي القديمة ، التي لم يتبق فيها شيء من أثاري . في الغرفة بالذات قرأت تلك الكتب التي أثارت في ذهني حرقّة الأسئلة بتعبير عبد اللطيف اللعبي ، وكتبت أولى محاولاتي في الكتابة وأولى ما نشر لي من مقالات في الصحف الأولى ... وقفت متأنية أمام غرفتي التي حولها أحد أبناء أخي الذي درس الميكانيكا إلى مخزن لأغراضه ... ⁵¹

في هذا النص لا تقوم الذات بالتواصل الحيادي وإنما تلج إلى قلب المكان محاولة استدعاء الصور معرفيا من خلال التأمل فيه ، فالذات هنا تقودنا إلى قلب البيت إلى قلب قوة مغناطيسية ومنطقة أمان واستقرار سابق .

إن هذا التتابع البصري الذي يقدمه النص في علاقة (الذات) ب (المكان) أولا ، ثم علاقة (الذات) ب (الأيقون) ثانيا يبرز إلى السيطرة على العلامات المرئية ، وهذه العلامات تظهر عناصرها بشكل متزامن مع أن ظهور تنظيم تراتبي ممكن ، فإنه ليس ملزما ولا نسقيا ⁵² ، ذلك لأن العلامات المرئية يمكن أن تستخدم أكثر من بعد بشكل متزامن ⁵³ ، وهذا ما نجده في الأيقونات السابقة من تزامن النظر إلى المكان وأركانه وأضوائه ثم تداعيات هذه الصور النفسية والاجتماعية .

– اتساع أيقون الأمكنة وضيقها

هناك اختلاف بين تلك الأيقونات التي تشبه موضوعها من بعض الجوانب ، وبين الاستعارات التي لا ندرك داخلها سوى تواز عام ، فلكل منها خصائصه التي تميزه ، وعلى أن الأيقون يحمل خصائص موضوعه إلا أن التعريف الأكثر مقبولية للأيقونة هو ذلك الذي "... ينفي عنها صفة العلامة فالأيقونة عند موريس هي تامة عندما تتطابق العلامة مع موضوعها (أنا أملك خصائصي ، أكثر ما تتوفر عليه صورتي) ⁵⁴ ، ولذلك فالعلامات الأيقونية هي علامات جوهرية أو تجاورية لموضوعها ، ذلك لأن الأمر يتعلق بعلامات تحيل على موضوع سابق من خلال الكشف عن جزء من أجزائه ، هكذا سيكون (المكان) الحقيقي حاملا لخصائصه أكثر من المكان (الأيقون) ، وعليه فإن جدلية (الاتساع) و(الضيق) هنا أيضا ستخضع إلى هذا التصور؛ فاتساع (المكان) أو ضيقه فضائيا ليس هو نفسه في (الأيقون) المكاني الذي نستدعيه من الذاكرة حتى وإن حملناه شحنة نفسية وعاطفية في محاولة نقله إلى المتلقي .

إن انطواء الشعور على نمط وجود ذاتي قد أفضى إلى الافتراض بأن (الذات) تملك نوعا من اليقين للتعرف على الحالات الشعورية الخاصة ، والحال أن الإدراك باعتباره سيروية افتراضية شبيه بذلك التحديد الاستثماري للمعرفة إلا أنه وثيق الصلة بتلك السيروية التي بموجبها لا وجود لرباط دائم بين الإدراك الخام ومسميات الأشياء فقولنا : "انفساح المكان أكثر مما يجب يشعرا بالاختناق أكثر من المكان الضيق مما نحتاج" ^{5 5} ، ذا طابع ذاتي ليست له علاقة مباشرة بـ (المكان) الحقيقي وإنما هو انعكاس لحالة شعورية وتلك السيروية المعرفية ؛ فالاتساع والضيق يفسران معرفيا بطريقتي مختلفتي عما يفسران به عاطفيا وذاتيا. هذا التصور نضفيه على الأيقون المكاني بوصفه إحساسا خاصا أو عاما ؛ فالبيوت المتناهية في الصغر هي موضوعات مفترضة تمتلك موضوعية سيكولوجية حقيقية فـ "كلما صغرت العالم بمهارة أكبر امتلكتها بشكل أكثر كفاءة" ^{5 6} ، لأن القيم تتكثف وتغتنى من المتناهي في الصغر ؛ ولذلك فإن الصورة العالقة في الذهن عن (المكان) الحقيقي هي تصغير له وتكثيف في دلالاته في الآن نفسه ولناخذ شاهدا على ذلك مثلا قول (مدن) :

"... حرصت ، بعد أيام أن أذهب إلى تلك الساحة أمام المسجد . لم يكن الوقت ليلا . لم يكن ثمة قمر فضي يبدد العتمة ، كان الوقت عصرا والشمس ما زالت قوية . لكنني وجدت الساحة ضيقة وصغيرة جدا ، أيجوز أنها هي الساحة نفسها التي كنا نظنها صغارا بوسع الدنيا وكانت لشدة اتساعها تصبح ملعبا لكرة القدم" ^{5 7}

هنا يقدم لنا النص جدلية (الاتساع) و(الضيق) المكانيين في تأطيرهما الزماني (قبل وبعده) ، إنه تأطير ضمن أيقونة مستدعاة من الماضي وأخرى واقعية حسية . إنما الآن - في لحظة كتابة النص - هما صورتان متوازيتان بصريا رؤيوي ، أما (الذات) فهي ملتبسة في جو نفسي مضطرب بين الشعور المكاني بـ (الاتساع) أو (الضيق) ، ليشكل المكان مركزية الإحساس والشعور المتناقض فهو هنا "يعتمد على المروحة بين مفهوم لا اعتيادي للمعنى - الشعوري - ومفهوم اعتيادي" ^{5 8} ، إنه شعور تحدده حدود التأطير المكاني ؛ فالمكان كما يؤكد (مدن) في نصه لم يتغير جغرافيا وإنما شعور الذات وهي (داخله) هو الذي يقدم هذا الاضطراب الشعوري ؛ يقول : "ذهلت ! الساحة هي نفسها ، نفس المساحة ونفس البيوت المحيطة بها ، سوى أن غابة النخيل لم تعد في نضارتها التي عهدتها فيها ، وهي توشك على الموات بعد طول عطش ، لكن كيف ضاقت الساحة أمام ناظري هي التي كانت لفرط اتساعها فضاء جري لمهر كناه نحن أنفسنا في تلك السن الجميلة من العمر" ^{5 9} . إن مركزية ضيق المكان في هذا النص مركزية بصرية تخيلية لا واقعية .

إن (الذات) وهي (داخل) المكان ، ليست هي تلك الناظرة إليه بوصفه (أيقونا) ، إنها - أي الذات - تتخذ من تأطير الحدود الفضائية للمكان حيزا للنظر ؛ فمفهوم الحدود يتسم "بالازدواجية" : إنه يفرق ويوحد في ذات الآن ... ^{6 0} ، لأنه يحدد ويوحد أطرا معينة وهذا بالضرورة يفصلها ويفرقها عن حدود تقع خارجها . وعلى ذلك فهي المسؤولة عن إسقاط تلك الفضاءات الجديدة وذلك الشعور الخارجي نحو الأيقون (المكان) ؛ فحين يقول الكاتب في إطار وقوعه في ذلك الاضطراب النفسي بين (الاتساع) و(الضيق) :

"ما الذي تبدل فجعل منها ضيقة ، صغيرة محدودة المدى ؟ وددت حينها لو أنني احتفظت بصورة الساحة في الليالي المقمرة بمحاذاة غابة النخيل في ذهني ، ليتني لم أت إلى هنا لأرى الساحة كما هي في الواقع . ما أكبر المسافة بين مغيبة الطفولة وصرامة هذا الواقع !" ^{6 1}

وتأسيسا على ما سبق فإن (المكان) لم يتغير بل تغيرت حدود التأطير الأيقوني التي جعلت (المكان) يمثل هذا التصوير الذي ينقله لنا الكاتب ، إنه تأطير الأيقونة (المكان) بعدما كانت واقعا في نطاق زمان ماض .

إن (الضيقة) في مقابل (الاتساع) يتيح للذات وعي العالم بجهد قليل ؛ إذ تتعدد التحولات من الصغير إلى الكبير ، وحين تنمو صورة مألوفة لتتخذ أبعاد السماء فإننا نفاجأ بانطباع أن الأشياء المألوفة تصبح مصغرات للعالم ؛ فالكون الكبير والكون المتناهي في الصغر مترابطان ، ... وحتى عندما يكون المكان موضوعها فإن حجم الصورة يتغير . إن أبسط قيمة توسع وتعلي وتضاعف الصور . والعالم إما أن يصبح هو الوجود الكامل لصورته ، مستوعبا كل مساحتها أو يحدد نفسه في شكل مصغر لصورته ، وما يسميه فلاسفة الميتافيزيقيا (الوجود - في العالم) يجب أن يتحدد طبقا لكل صورة ، والا فلن نجد إلا صورة مصغرة للوجود^{6 2}

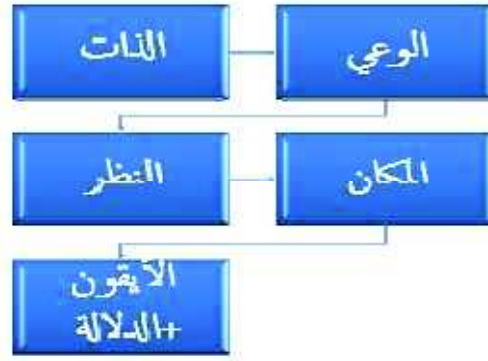
إن (الضيقة) هو صورة بصرية للمكان ، ولكن (شديدة الصغر) توقف حواسنا المعرفية ب (الاتساع) ونكون عندئذ في حالة من المقارنة الحسية ؛ ففي مثل قول (مدن) : "... بعد أن غادرنا الحسنية ليلت عودتي ، مشينا الطريق المؤدي إلى بيتنا القديم . هالتي أن الطريق إلى البيت قصير جدا . كانت تلك صدمة أخرى لما هو باقٍ من ذاكرتي . كان هذا الطريق يبدو لي وأنا طفل طويلا وإن مدى زمنا أطول كان يلزمني كي أقطعه^{6 3} ، يمثل (المكان) مركز (الأيقون) ومحور تجلي الشعور الذي سيسطر على (الذات) ، فالعلاقات هنا تتابعية بين (الذات) والأيقونة (المكان) باستحضار الخبرة المعرفية ومقارنتها المرجعية وتتابع هذه الخبرة في تحولاتها ما بين (الضيقة) و(الاتساع) .

وإذا كان الشعور ب(الضيقة) في هذا النص شعور خادع بين المكان وأيقونته المستدعاة من الذاكرة فإن الشعور ب(الاتساع) ينحو منحى مختلف ويؤدي دلالات نفسية ومعرفية متعددة ؛ فالذات كونها وحدة استعلائية في النظر إلى (الاتساع) تنفتح على المكان في محاولة تأطيره أيقونيا وفي محاولة استدعاء تمثيلات المكان في ذلك التأطير . إننا أمام (اتساع) مكاني أيقوني ، وهذا الاتساع يحتاج إلى إدراك شعوري ومعرفة بحدوده كي تستطيع (الذات) تأطيره في حدود الأفق ؛ ف المكان قد يظن أنه يحوز على قدر من الكلية من خلال اتساعه الذي يتوقف عند حدود الأفق ، ويساعد على ذلك ما أطلق عليه تخوم المكان التي تجعله يرتبط بعلاقة مع الأمكنة المختلفة عنه والتي لا تقع في حيز إدراك الرائي للمكان الخاص^{6 4} ، وعليه فإن حدود المكان في اتساعه لا يمكن أن نؤطرها إلا ضمن علاقات مكانية محيطية به من حيث هي جزء منه لا مكان مستقل عنه ، فإذا استطعنا تحليل انطباعات وأيقونات عن أمكنة في غاية الاتساع ، فإن هذه الأيقونات وتلك الانطباعات لا تحيلنا مباشرة إلى وعينا الذي يتخيل في تحليل صور هذا (الاتساع) ، إذ علينا أن نكتشف الوجود الخالص للمكان الحقيقي ؛ ولذلك - تكون (الحصيلة) الحقيقية هي وعينا بالتضخيم . إننا نشعر إننا انتقلنا إلى كبرياء الوجود المعجب^{6 5} عندما نحاول هذا التحليل والتأطير فهو متصل بتمدد الوجود أمام ناظري (الذات) الرائية ؛ ولتحليل هذا (الاتساع) الأيقوني للمكان يمكن أن نعرض مجموعة من أيقونات المكان في (ترميم الذاكرة) من مثل :

"... ذات صباح باكر ، طازج ، خارج للتو من بقايا عتمة الفجر ، حين بدا لي التحديق في غابة النخيل من على شرفة الفندق في مدينة العين بالإمارات منذ سنوات خلت ، تعريضا للعين على الاسترخاء وهي ترى هذا الامتداد الأخضر ، النضر ، المغسول بندي الصباح ، واقتراحا للتألف مع تلك الذكرى التي تقفز من مستودع الطفولة التي تبدو الآن قصية..."^{6 6}

يقدم النص مصطلح (الامتداد) في مقابل (الاتساع) الذي يتحدث عنه النص إنما هو اتساع مكاني نحو الأفق . إنه نظر عمودي في تواصل (الذات) مع (المكان) وهذا المستوى من النظر إنما يعين على تمدد الأفق أمامه أكثر من النظر الأفقي ، إنه يساعد على اشتغال (المكان) بوصفه أيقونا اشتغالا معرفيا ونفسيا واعيا باعتباره "وصفا لما هو أمام الفكر أو في الوعي مثلما هو ظاهر في مختلف أنواع الوعي"^{6 7} . إن لحظة الوعي هذه إنما تمثل علوا ذهنيا فيما يعتقد لا يكوف ومارك فيما ذهب إليه من أن الوعي فوق ، والا وعي تحت^{6 8} حينما تحدثنا عما أسمياه ب (الاستعارة الاتجاهية) ؛ وعليه

فإن العلو والارتفاع العمودي واقع مكانيا للذات في الأيقون وذهنيا في حالة الوعي ، ثم يأتي (التأويل) الدلالي (للاتساع) (تحريضا للعين على الاسترخاء) ، إنه تأويل واعى للاتساع المكاني لحظة النظر نحو (الامتداد الأخضر) ، فهذا الوعي يفسر علاقة الإنسان بالمكان التي "يحددها (الوعي والوجود) فهو يحيط بالإنسان وبوجوده ، وفي ذات الوقت يحيط الإنسان به عن طريق الوعي"^{6 9} ، ويمكن التعبير عن هذه السيرورة التواصلية بالخطاطة الآتية :



شكل (10.)

إن كلمة (واسع) باعتبارها الميتالغوي تحيل على "موضوع المرجعية الذي يشكل الامتداد"^{7 0} ، إنه امتداد نحو الأفق الذي يعين على التأطير الأيقوني للمكان ، ونحن إذا تأملنا نص آخر من نصوص (ترميم الذاكرة) من مثل :
 "أذكر أن مدرسا فلسطينيا مسيحيا اسمه إيميل كان يدرسنا مادة الفيزياء ، وفي حصته عن البصرييات ذكر أن شبكة العين ترتاح حين تحديق بعيدا ، فكلمنا اتسع مدار النظر كلما كانت العين أكثر ارتياحا ، هذه العبارة رسخت في ذهني ، وتشكل لدي شعور بأنه كان يحرضنا على التحديق في البحر الذي يمتد لا متناها خلف شباك الفصل ، وما زال هذا الشعور يحملني على التحديق في ما تبقى من امتداد البحر كلما قبض لي ذلك..."^{7 1}

إننا أمام (امتداد) شاسع إنه (اتساع) نحو الأفق ، ويبدو أن (الذات) في هذه (الأيقونة) تحاول الربط خلال زمانين مختلفين بين حالين من حالات النظر نحو (الاتساع) ، إنها تقدم لنا (أيقونة) مكانية ذات طابع دلالي معرفي ، وأخرى ذات طابع سلوكي نفسي . ففي حال معرفة أن "شبكة العين ترتاح حين تحديق بعيدا ، فكلمنا اتسع مدار النظر كلما كانت العين أكثر ارتياحا" فتلك المعرفة تقود إلى فعل سلوكي هو (التحديق) ولن يفرض بالضرورة إلى تأطير المكان إلا في حالة اللاوعي التي ستنتج بعد مدة من الزمان دلالات أخرى مسقطّة على (المكان) الأيقون / البحر ، ليشكل المكان نفسه (البحر) تلازما مع (الذات) لا مع المعرفة ، يظهر ذلك في قول مدن : "وتشكل لدي شعور بأنه كان يحرضنا على التحديق في البحر الذي يمتد لا متناها خلف شباك الفصل" إذن إنه تلازم نفسي بين الذات و(المكان) لا الأيقون فحسب وإنما المكان (البحر) أينما وجد .

إن هذا الزخم المعرفي والأيقوني لصور اتساع (المكان) في النص من خلال تقديم صور مركبة للمكان نجده أيضا في مواضع أخرى من النص في مثل :

"كان النخيل محيطا بالبيت الذي قضيت فيه طفولتي وصباي ، ومن على سطح البيت كان لغابة النخيل المجاورة منظر كذاك الذي بدا لي من على شرفة الفندق ، هذا الامتداد الذي يكاد يكون لا متناها للبواسق المثقلة بعدوق الرطب الحمراء والصفراء . ويوم كنا ننسل صفارا في الطرقات الضيقة داخل الغابة المترامية بالنخيل ، لم نكن نطقن أبدا أن لهذه الغابة كل ذلك الجلال لو أننا شاهدناها من علو"^{7 2}

فالنص هنا يقدم أيقونا مركبا لـ (اتساع) المكان ، بل يقدمه في تقابل مع (الضيق) ، حيث تبدو (الذات) في علو عن الأيقون المكاني (الاتساع) وتبدو العلاقات المكانية بين أجزاء الأيقون ممتدة امتدادا (لا متناهيا) ، ليبدو (الضيق) في الأيقون نفسه الذي عبر عنه النص وربط بينه وبين (الاتساع) بصوت (الواو) الدال على الترتيب والتعقيب المباشر الذي لا يترك للمتلقي فرصة الفصل بين جزأي الأيقون المكاني (الواسع) و(الضيق) ، فهو يقدمه كونه أيقونا مكانيا واحدا . غير أنه يفصل بين بنيتين من بنى الشعور الآني ، والماضي ، العميق والسطحي ، ذلك لأن المكون الدلالي هنا ينشأ من نمط تصويري وتصويري يعادل استثمار الوصفة الشكلية وبهذا المعنى تشتمل البنية العميقة على مستويين ينتميان إلى جوهر المحتوى هما : المستوى المحايث ... ومستوى تمظهر المحتوى...^{7 3} ، وبهما معا ينتج الشعور الآني بـ (الاتساع) ، والشعور الماضي بـ (الضيق) على أن لكل منهما سيطرته على المكان في زمنه ؛ فبالرغم من أن النص يقدم لنا (الضيق) كونها صفة طاغية على الشعور بالمكان في الماضي - لم نكن نفطن أبدا أن لهذا الغاية كل ذلك الجلال لو أننا شاهدناها من علو- إلا أنه يقدم لنا في مقابل ذلك طغيان (الاتساع) في الزمن التالي بشكل قصدي واضح ؛ لأنه قدم أيقون (الاتساع) من زاوية عمودية (سطح البيت) فقط ، بينما قدم لنا طغيان (الضيق) في الأيقون بشكل أفقي (نسل صغارا في الطرقات الضيقة داخل الغابة المتراسة بالنخيل) وعمودي (أننا شاهدناها من علو) .

خامساً : فضاء الأمكنة وأزممنتها

- جدلية الفضاء في أزمنة الأمكنة

لا نستطيع أن نعزل المكان بذاته بعيدا عن الزمان إذ لا يمكن طرح مسألة المكان أو الفضاء بمعزل عن الأزمنة ، فالعلاقة بين الزمان والمكان علاقة أساسية لأنها تشخص وتعكس جدلية الواقع في الحياة ، ذلك لأن الكائنات البشرية هي سابحة داخل فضاء واقعي^{7 4} فإذا كان الزمان يمثل الخط الذي تسير عليه الأحداث فإن المكان يظهر على هذا الخط ويصاحبه ويحتويه لأنه الإطار الذي تقع فيه الأحداث ، وهناك اختلاف في طريقة إدراك المكان حيث أن الزمان مرتبط بالإدراك النفسي ، أما المكان فيرتبط بالإدراك الحسي ؛ فالمكان مرتبط بزمانه في أيقونته المكانية وما أن تصبح (الذات) في مكان آخر خارج الأيقون فإنها ستفقد بالضرورة الزمان الماضي أيضا ، ذلك لأن الزمن موجود وجودا واقعيا حيث يمكننا أن نكون على وعي تام به ، وأن ندركه في كافة الظواهر والأحداث الواقعية الظاهرية حيث يفرض وجوده بالضرورة على كل أفعالنا^{7 5} ، بينما يمثل المكان إلى جانب الزمان الإحداثيات الأساسية التي تحدد الأشياء الفيزيائية . فنستطيع التمييز بين الأشياء والموجودات من خلال وضعها في المكان ، كما نستطيع تحديد الحوادث من خلال تأريخ وقوعها في الزمان ، وعليه فالعلامات الزمنية لا تمنح دلالتها إلا في المكان ، والمكان لا يدرك إلا في سياق الزمان^{7 6} ، وبذلك يبتدى الفضاء في كل ما يحيط بالإنسان ويحدد المكان بوجود المحسوس وجود الزمان في التصور فلكل زمان ظرفيته الاجتماعية الأيديولوجية والدلالية ومعجمه ونبراته وشعاره وشتائمه ، وإخراعاته...^{7 7} ، فخطابه مستقل وقد يكون متفرد من حيث أن لكل زمان ومكان خطاب خاص به .

إن هذا (المكان) الذي وقع في ذاك (الزمان) يجمع بينهما (فضاء) مشترك هو -أبعد من أن يكون مساويا لطبيعية مرآة واضحة- ، حيث عليها أن تعكس الحزم الضوئية الواردة من الأشياء وفقا لورودها الصحيح...^{7 8} ، ولذلك نجد أن (الفضاء) هو ذلك العالم الذي يشغل مؤخرا لأيقون المكان في زمانه الذي وقعت فيه رؤية (الذات) للمكان ؛ وإذا تأملنا قول (مدن) في نصه:

-... كان علي أن لاحظ أننا إذ نفقد المكان فإننا نفقد الزمن أيضا ، الزمن الذي اقترن بالمكان الذي نغادره بات ماضيا ، لكننا ننتبه إلى ذلك فقط حين يصبح هذا المكان خلفنا ، فنفقه إن الزمن هو الأخر بات خلفنا-^{7 9}

فإننا سنجد في مجال هذا التأخير أيقونة (المكان) وارتباطها بزمناها الذي سيشكل فضاء الأيقون ، وهو فضاء داخلي يوحد المكان والزمان معا ، وعلى الرغم من أن هذا الفضاء "يتكون من بنيات في حالة مواجهة ، فإنه لا يمتلك فردانية حقيقية" ^{8 0} ؛ فالفضاء الذي يقدمه (مدن) هنا يخأب بضمير (المتكلم الجمع / نحن) على الرغم من أنه يبدأ بـ "كان علي أن ألاحظ" وهي ممارسة لسلطة الخبرة على المتلقي وإسقاط التجربة الفردية على الآخر ، وهذه الصيغة - صيغة الجمع- ستؤدي إلى تأخير آلية الحدود وتوحيد الرؤية ما بين الداخل (تجربة الذات) والخارج (تجربة الآخر) في فضاء يمكن أن يطلق عليه (فضاؤنا) الذي يحمل الخبرة بين المكان والزمان في سياق (الحضور) والغياب) .

إن الصورة التي تنبثق من آلية توحيد المكان والزمان في فضائهما الداخلي تسهم في سيروية توحيد أيقونة (المكان) ، وبمساعدة الأدوات الميتابنيوية لهذه الأيقونة فإنها ستحصل على حق البنيات التحتية لسميائيتها الخاصة لتجد نفسها منظمة في إخبار نسق عام من المرجعيات على محور زمني (ماضي ، وحاضر ، ومستقبل) ، فهي تشكل الفضاء الداخلي ، والخارجي والحد بينهما . وهكذا فإن النص سيؤخر لنا هذه المرجعيات الميتابنيوية إلى فضاءات عدة يمكن أن نعددها في الأيقونات الآتية:

الأيقونة الأولى :

" أول انطباع تكون لدي في يومي الأول ، في هذه الزيارة ، هو ما يمكن أن أدعوه (كثافة الشارع) . الشارع هنا بالمعنى الهائل من الناس . العدد الهائل في الشوارع يخلق شعورا قويا بأنك وسط الزحام ، وسط وجوه تبدو أليفة رغم أنك تصادفها للمرة الأولى . ثم حياة وحركة وقدر هائل من التفاصيل في سلوك الناس ، تجعلك للوهلة الأولى غير مكترث أو ممتعض من الازدحام وبطء حركة السير ، كأنك تكتشف حالة أخرى من البطء والتأمل وألفة الأشياء ، ولوهلة تظن أن هذه هي الصورة النموذجية للحياة في اكتنازها بالتفاصيل وفي سعي أهلها لأن يأخذوها غالبا ... ^{8 1}

هذا الأيقون يعكس نوعا من الفضاءات البصرية المعتمدة على إبراز المرجعيات الميتابنيوية للمكان حيث يشكل المكان مركزية للذات (الرأية) ، يعكس ذلك مرجعية اللغة (صيغة المتكلم) ، والمكان (الشارع) ، ثم الفضاء الذي سيشكل عمق الأيقون والمتمثل في (الزحام ، والوجوه ، والحركة ، والتفاصيل) . كل ذلك يشتغل معا بوصفه مرجعية ميتابنيوية للأيقون ليمثل سيروية (الأيقون) المكاني حيث ترتبط بالحركة التي تنطلق من مركزية (المكان) إلى مركزية (الذات) في عمق الشعور بـ (البطء والتأمل وألفة الأشياء) كل ذلك سيدفع الذات إلى مقابلة هذا (الأيقون) المكاني ، بأيقون مكاني آخر مقابلة معرفية لا شعورية من حيث المرجعية الميتابنيوية ليمثل هذا الأيقون صورة هامشية لسيروية الحركة في الفضاء المكاني للأيقون في قوله:

"لم يسبق أن لاحظت أن المدينة الخليجية الحديثة تفتقد مفهوم الشارع كما لاحظته في القاهرة . حقا إن شوارعنا فسيحة مريحة ومنظمة وسريعة وتؤمن انسيابية الحركة من خلال خطوطها المتعددة ، ولكنها شوارع للسيارات . إن الرصيف الموازي لهذه الشوارع لا يقارن في نبضه وحيويته وامتلائه بالتفاصيل بنظيره في المدن الكبرى" ^{8 2}

الأيقونة الثانية :

" حين سافرت للقاهرة للدراسة الجامعية فيها أدهشني ضجيج المدينة بالنسبة لكل عربي فإن القاهرة تشكل ذاكرة حتى لو لم يكن قد رآها قبل ذلك . إن السينما المصرية والأغاني المصرية تخالما ألهمت خيالنا منذ الصغر ، ولم تكن اللهجة المصرية غريبة على سامعنا منذ صفوف المدرسة الابتدائية التي تلقينا فيها معارفنا على عدد من الأساتذة بينهم الكثير من المصريين . مصر إلى ذلك هي جمال عبد الناصر بكل الذي كان يمثل في مغيلتنا وفي حياتنا وفي تكويننا" ^{8 3}

هو أيقون للفضاءات السمعية (الضجيج) ، غير أنه فضاء مشبع (معرفيا) بمرجعيات ميتابنيوية من مثل (السينما، الأغاني ، اللهجة المصرية ، الأساتذة ، جمال عبد الناصر) تشتغل هذه المرجعيات خارج فضاء الأيقون (الزماني والمكاني) ، ونحن نجد مثل هذه الفضاءات متوفرة في النص في مثل قول (مدن):

لن أنسى أول صباح أفقت فيه من النوم في بيروت ، في الشقة التي تقع في منطقة الفاكهاني بالطريق الجديدة ليس بعيدا عن مبنى جامعة بيروت العربية ولا عن مخيمي صبرا وشاتيلا الشهيرين . كان أحدهم قد فتح الراديو وكانت فيروز تغني : (حليانه الدنيا حليانه بلبان الأخضر) . شعور غريب انتابني بالقرب الروحي من هذه المدينة ، سيتطور فيما بعد إلى محبة عميقة وتعود كبير عليها^{8 4}

فالفضاء السمعي يشكل هامشية في مقابل المرجعيات الميتابنيوية الأخرى التي يزدحم بها (الأيقون) المكاني ؛ حيث تخترق المكان حدود متعددة وأمكنة هامشية أخرى (الشقة ، جامعة بيروت ، مخيما ..) إلا أنها ستسهم في سيورة العلاقة التواصلية بين (المكان) والذات) .

الأيقونة الثالثة :

... نزلت الشارع المحاذي الذي كان مليئا بالأسويين ، كان اليوم جمعة ، وكان الوقت مساء . من المحلات على عتري الشارع شمعت روائح البهارات الهندية الزكية والليمون المجفف والريان المجفف بأحجامه الكبيرة . ها أنا أخيرا في السوق الخليجي التقليدي ، انبعثت الذاكرة القديمة عن الفترة السابقة لمغادرتي البحرين آخر مرة ...^{8 5}

في هذه الأيقون يتمحور الفضاء الحدودي في الشم فهو فضاء شمي تتمركز فيه المرجعيات الميتابنيوية التي تشكل الإغفار المكاني والزمني للنص ، تشتد السيورة التواصلية بين (الذات) و(المكان) شميا ، لتكون (الرائحة) مركز المكان وعنصر اشتغال الأيقون لأنه يمثل تلك الخبرة المعرفية التي تربط بينهما - أي بين الذات والمكان - من حيث اشتغالها كونها إما " منبه حيوي ، انطباعات شمية متواترة ، النقل الثقافي والأيديولوجي) " ^{8 6} ، ذلك لأن الذات بحسب خبرتها المعرفية تحملها تصنيفا ومعرفة ودلالات لتثير تلك الأيقونات المتواترة والمتراكمة في الذهن عبر الأمكنة والأزمنة المختلفة.

هذه الخبرة المعرفية للأيقون الشمي للفضاء المكاني والزمني في هذا النص لن نجدها في نص آخر من مثل :

ما أنخبط ذكرى تلك السويكات المسائية المعطرة بالندى والياسمين ، حين تطوف فتيات الفجر بقلائد الزهور بحثا عن عشاق يهدونها إلى من يهون ، وفيما تشيع في المكان رائحة القهوة المركزة يتسلل في الزوايا صوت فيروز بكلمات سعيد عقل أو الأخوين رحباني...^{8 7}

فهذا النص يقدم الفضاء الشمي في توازن مع الفضاء البصري والصوتي مما سيؤدي إلى هامشيته ، ذلك لأن العلاقات البيئشخصية التي تتم في مثل هذا التواصل بين (الذات) و(المكان) و(المعرفة) تتغذى من التبادل الدلالي للمثير الذي يشكله (المكان) ف(رائحة القهوة) لا تشكل مركزا في المكان بل هي جزء من صورة عامة له .

- الفضاء التجاوري للأمكنة

التجاورية هي تلك الأمكنة المتجاورة للذوات والموجودات في الفضاءات المكانية والزمانية المحددة ، هي علامات تشتغل اشتغالات دلالية من حيث أنها - تعطي للتواصل تنغيمة ونبرة وتتجاوز في كثير من الأحيان الخطاب ...^{8 8} :

فالمسافة التجاورية بين متخاخين غربيين تختلف عن تلك التي تكون بين صديقين حميمين ، ولذلك فهي تسهم في النشاط التفاعلي المكاني . يرى بيير غيرو أن في كل مظاهر التجاورية نوعا من (سيمولوجيا المكان والزمان) -^{8 9} ذلك

لأن دراسة وضع المتخاخين تعني فهم الطريقة التي يملأون بها المكان الذي يتكلمون منه والمسافات التي يحافظون عليها بينهم بالإضافة إلى إدراكهم لاستعمال الزمان في التواصل الاجتماعي ؛ فلقد أصبحت الوظيفة علامة إحدى الثيمات الرئيسة في السيميائيات المعاصرة ؛ فالمسافة التجاورية تفسر لنا كيف "يدل الاختلاف بين شخصين بمسافة محسوبة بالأمطار والسنتيمترات على موقف اجتماعي معين..."⁹⁰.

تبرز التجاورية في نص (ترميم الذاكرة) من كونها تنوعا لـ(المكان) من ناحية ومن حيث كونها (رمزا) من الرموز ذات الدلالات المتنوعة اجتماعيا ونفسيا ؛ ففي قول (مدن):

"... ذهبنا من جديد إلى السهلة لتحقيق ما كنت قد عقدت عليه العزم. كان ذلك اختبار آخر للشعور الذي ينتابنا حين نكون إزاء أشياء ووجوه عذبنا الحنين إليها غويلا. لقد كنا نحن إلى رؤيتها من جديد ، إلى الاقتراب منها ، كأن نضع أقدامنا مثلا على أشبار من الأرض عنت لنا شيئا كبيرا ، أو نلامس شيئا غالما حننا إليه بكلتا اليدين ، وأن نحدق في ملامح وجه انقطعنا عن رؤيته غويلا. ولكن ماذا يحدث حين يتحقق الحلم برؤية تلك الوجوه والأشياء والمطرح ، فنراها رأي العين ونلمسها لمس اليد ونخطو على أشبار الأرض التي كانت حلما بأقدامنا ذاتها التي وغنتها في غفولة غابرة أو صبا من سريعا"⁹¹.

تتجلى هنا معايير قياس التجاورية والتي حددها (فاستون)⁹² وهي المحور الاجتماعي "وجوه عذبنا الحنين إليها غويلا" ، والعوامل الحركائية "الاقتراب منها" ، والاتصال اللمسي "نضع أقدامنا مثلا على أشبار من الأرض ... أو نلامس شيئا غالما حننا إليه بكلتا اليدين" ، والاتصال المرئي "وأن نحدق في ملامح وجه انقطعنا عن رؤيته ...". كل تلك المعايير تسهم في قياس مستوى التجاورية المكانية التي تنطلق منها (الذات) في الاقتراب من (المكان) ؛ فالوجوه واللامح في هذا النص تعد هامشية في مقارنة مع سطوة المكان وسيطرته على فضاء الأيقون.

إن التجاورية التي يتحدث عنها النص في أن : "فكرة التجاور أشمل وأوسع مدى من مثل هذه التجاورات العابرة أو السريعة أو الخالصة ، لأننا في الحقيقة نقع كل يوم داخل منطقة التجاور هذه ، في البيت وفي العمل وفي الأماكن التي نرتادها بانتظام وحتى بغير انتظام. دائما نمته شخص أو أشخاص نجاورهم ، هم بالقرب منا في نفس المكان أو في المكان المجاور. قلنا من هؤلاء لنا يد في اختيارهم ، وكثرة لسنا من يحدد أمر جيتهم ، ولذا فإننا نكتفي بهذه الجيرة غير راغبين في تحويلها إلى تقابل"⁹³ ، هي تجاورية مكانية تمر عبر أزمنة متعددة لذوات مختلفة. يقدم النص خلال هذه الفكرة العلاقات التواصلية بين الذات والأمكنة من ناحية وبين الذات بعضهم بعضا من ناحية أخرى. إنها فكرة (الواقع) و(الواقع النفسي) التي اقترحها (لاكان Lacan)⁹⁴ ، فالواقع يشكل هنا الحيز المكاني للتجاورية والتواصل الذي يمر خلاله ، بينما يمثل الواقع النفسي الأيقون الذي تخزنه الذات تجاه الأمكنة التجاورية بما تثيره في نفسها من خوالج وعواطف حيادية أو سلبية أو إيجابية.

إن هذا النص يركز على علاقة الذات داخل الأيقون المكاني التجاوري من حيث :

أولا: اختيار الذات للأمكنة التجاورية.

ثانيا : اختيار الذات لبعضها خلال هذه الأمكنة التجاورية.

ثالثا : تطور علاقات الذات خلال وجودها في الأمكنة التجاورية.

إن تحديد التجاورية بـ"نفس المكان أو في المكان المجاور" يفسر تعدد الأمكنة في الأيقون من ناحية وتعدد الأثر النفسي من ناحية أخرى ؛ أمكنة غير مختارة وذوات غير مختارين أيضا ، وبناء على ذلك فإن الأثر النفسي أيضا لن يكون بهذا الاختيار لأنه مرتبط بتلك الأمكنة وتلك الذات.

خاتمة

إن (ترميم الذاكرة) بوصفه ميثاق سيرة ذاتية مرجعا لحياة الكاتب التي تشكل خطاب النص ؛ إنه خطاب فردي سيحول جمعيا في بعض خطاباته ؛ من حيث كونها تداعيات متعددة الدوال تتداعى ضمن قوالب سردية خاصة فهي مجموعة من الأفكار التي تتشكل في نسق لغوي علاماتي " فلا وجود ولا استقلالية لأفكار دونما علامات"^{5 9}. ويمثل المكان في هذا النص مكونا محوريا في بنية السرد ، فلا وجود لأحداث خارج المكان وإن لم يذكر صراحة ، ذلك لأن كل حدث يأخذ وجوده في مكان محدد وزمان معين ، إنه يحدث في الأثر الحقيقي الذي ينقله النص في خطابه اللغوي والميتالغوي فالنص تجزئة للأثر ، بل إن الأثر هو الذيل الوهمي للنص وبعبارة أخرى ؛ إن النص لا يعرف نفسه إلا داخل عمل وإنتاج^{6 9} ؛ ذلك لأن الأثر هو المؤسس الخفي للنص الذي لا يمكن فصله عنه .

في (ترميم الذاكرة) لا تتشكل العلامة المكانية (الأيقون) إلا وفق رؤية ما من قبل (الذات) ؛ فالحديث عن المكان هو بالضرورة حديث عن الرؤية التي قادت لمعرفة تفصيلاته وعلاقاته المكانية الأخرى بالزمان والفضاء والذوات والعناصر الأخرى ؛ لأنها – أي الأيقون- تتأخر في سياقها من خلال تلك الذات الرائية عبر مستويات التواصل المتعددة لتشكل أيقونا خاصا بكل مكان على حدة وإن كانت هناك أيقونات مركبة لأماكن عدة لكنها ظهرت فقط على سبيل المقارنة بإمكانة أخرى .

إن أيقونات (المكان) في (ترميم الذاكرة) لا يمكن تأويلها بصفة كاملة لا باعتبارها علامات ولا باعتبارها مرموزات ؛ ذلك لأنها رموز حقيقية متعددة المعاني ، مليئة بالأحاسيس والمشاعر التي ترتبط بالذات من ناحية ، وبالعناصر الأيقونية الأخرى من ناحية ثانية . وما جاء في هذا البحث إنما هو محاولة لسبر التظاهرات المتعددة لهذا الأيقون وعلاقاته بالذوات والأزمنة والفضاءات في سياقاته المتعددة . هي محاولة ساعية إلى تأويل إمكانات هذا الأيقون كونه عنصرا مهما من عناصر النص وتحليله سيميائيا في خطابه ضمن إمكانات التفكيك والتحليل فليس هناك حدود لهذا التفكيك والتحليل كما ليس هناك حدود لتأويلات الأمكنة وفضاءاتها في هذه النصوص ؛ فكل مكان يدفعنا إلى أمكنة متعددة وكل فضاء يفتح أمامنا فضاءات متداخلة ليبقى النص حافلا بـ (الأمكنة) منفتحا عليها أثرا ورمزا وموضوعا.

هوامش

- 1- حسين . خالد حسين . شعرية المكان في الرواية الجديدة (الخطاب الروائي لأدوار الخراط أفنودجا) . مؤسسة اليمامة الصحفية (كتاب الرياض 83) ، الرياض ، 2000. ص 63.
- 2- كاتب بحريني .
- 3- إيكو . أمبرتو ، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه) ، ترجمة سعيد بنكراد . المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2007م . ص 67-68.
- 4- ابن منظور . أبو الفضل جمال الدين ، لسان العرب ، ج.4 . دار صادر ، بيروت ، ب ت . مادة م ك ن .
- 5- إيكو . العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه) ، مرجع سابق . ص 70.
- 6- لوتمان . يوري وآخرون ، جماليات المكان ، ترجمة سيزا قاسم . ط2 . دار قرطبة ، الدار البيضاء ، 988م . ص 63.
- 7- إيكو ، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه) ، مرجع سابق . ص 228 .
- 8- لوجون . فيليب ، السير الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي) ، ترجمة عمر حلي . المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 994م . ص 64.
- 9- حمري . حسين ، نظرية النص (من بنية المعنى إلى سيميائية الدال) ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، 2007م . ص 239.
- 10- موروا . أندريه ، فن التراجم والسير الذاتية . ترجمة ، أحمد درويش ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، 999م . ص 97.
- 11- تشاندلر . دانيال ، أسس السيميائية ، ترجمة ، د طلال وهبه . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2008م . ص 200.
- 12- لوتمان ، جماليات المكان ، مرجع سابق . ص 69.
- 13- كريستيفا . جوليا ، علم النص ، ترجمة فريد الزاهي . دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، 99م . ص 22.

- 14- مدن، حسن، ترميم الذاكرة . المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2008م . ص 10 .
- 15- إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، مرجع سابق . ص 227 .
- 16- غرماس . أليجيرداس، وحاك فونتيني، سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس)، ترجمة، سعيد بنكراد . دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010م . ص 68.
- 17- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق. ص 9.
- 18- المرجع السابق نفسه . ص 8.
- 19- المرجع السابق نفسه. ص 32 .
- 20- المرجع السابق نفسه. ص 99 .
- 21- المرجع السابق نفسه. ص 32 .
- 22- المرجع السابق نفسه . ص 9 .
- 23- المرجع السابق نفسه. ص 33 .
- 24- المرجع السابق نفسه. ص 99 .
- 25- غرماس، سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس)، مرجع سابق. ص 96.
- 26- فونتاني . جاك، سيمياء المرئي، ترجمة د. علي أسعد، ط2 . دار الحوار، سورية، 20.0م . ص 53 .
- 27- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 98.
- 28- المرجع السابق نفسه. ص 13.
- 29- غرماس، سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس)، مرجع سابق . ص 82.
- 30- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق. ص 46 .
- 31- المرجع السابق نفسه. ص 57 .
- 32- الحداوي . طائع، سيميائيات التأويل (الإنتاج ومنطق الدلائل) . المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006م . ص 90.
- 33- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق. ص 69 .
- 34- المرجع السابق نفسه. ص 99 .
- 35- الزاهي . فريد، النص والجسد والتأويل . أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2003م . ص 42.
- 36- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 70 .
- 37- إيكو . أمبرتو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي . مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005م . ص 116.
- 38- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 73.
- 39- المرجع السابق نفسه. ص 74 .
- 40- إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، مرجع سابق . ص 91.
- 41- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 7 .
- 42- إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، مرجع سابق . ص 67.
- 43- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 18 .
- 44- المرجع السابق نفسه. ص 18 .
- 45- المرجع السابق نفسه. ص 18 .
- 46- إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، مرجع سابق . ص 143.
- 47- إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، مرجع سابق . ص 100.
- 48- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 31.
- 49- فونتاني، سيمياء المرئي، مرجع سابق . ص 71 .
- 50- مدن، ترميم الذاكرة، مرجع سابق . ص 31 .
- 51- المرجع السابق نفسه. ص 33 .
- 52- تشاندلر، أسس السيميائية، مرجع سابق . ص 93.
- 53- دي سوسير . فرديناند، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبد القادر قتيبي . أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2008م. ص 82.
- 54- إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، مرجع سابق . ص 96.
- 55- باشلار . غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط 2 . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1984م . ص 198.
- 56- المرجع السابق نفسه. ص 46.
- 57- مدن، ترميم الذاكرة . مرجع سابق. ص 22 .

- 58- رورتي . ريتشارد ، الفلسفة و مرآة الطبيعة ، ترجمة حيدر حاج اسماعيل . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2009م . ص 370.
- 59- مدن ، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 23 .
- 60- لوثمان . يوري ، سيميائية الكون ، ترجمة عبد المجيد نوسي . المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2011م . ص 49.
- 61- مدن ، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 23 .
- 62- باشلار ، جماليات المكان ، مرجع سابق . ص 63 .
- 63- مدن ، ترميم الذاكرة ، مرجع سابق . ص 26 .
- 64- الضوي . محمد توفيق ، مفهوم المكان والزمان في فلسفة الظاهر والحقيقة (دراسة في ميتافيزيقا برادلي). منشأة المعارف بالاسكندرية ، مصر ، 2003م . ص 48.
- 65- باشلار ، جماليات المكان ، مرجع سابق . ص 171 .
- 66- مدن ، ترميم الذاكرة ، مرجع سابق . ص 24 .
- 67- دولودال . جيرار ، السيميائيات أو نظرية العلامات ، ترجمة ، عبد الرحمن بو علي . دار الحوار للنشر والتوزيع ، سورية ، 2004م . ص 24.
- 68- لايكوف . جورج ، ومارك جونسن ، الاستعارات التي نغيا بها ، ط2 ، ترجمة عبد المجيد ححفة . دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، 2009م . ص 34 ، و 69- Danesi.Marcei, Messages, Signs, and Meanings, Ed 3rd. Canadian Scholars, Press Inc, Toronto, 2004. P.20.
- 70- النعيمي ، العلامة والرواية (دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف) . مرجع سابق . ص 113 .
- 71- إيكو ، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه) ، مرجع سابق . ص 93 .
- 72- مدن ، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 38 .
- 73- المرجع السابق نفسه . ص 24 .
- 74- الحداوي . طائع ، النص والمفهوم . المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2010م . ص 54 .
- 75- لوثمان ، سيميائية الكون ، مرجع سابق . ص 37 .
- 76- الضوي، مفهوم المكان والزمان في فلسفة الظاهر والحقيقة (دراسة في ميتافيزيقا برادلي). مرجع سابق . ص 63 .
- 77- النعيمي ، العلامة والرواية (دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف) . مرجع سابق . ص 111 .
- 78- باختين . ميخائيل ، الخطاب الروائي ، ترجمة محمد برادة . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1987م . ص 6 .
- 79- رورتي . ريتشارد ، الفلسفة و مرآة الطبيعة ، ترجمة حيدر حاج اسماعيل . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2009م . ص 96.
- 80- مدن ، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 75 .
- 81- لوثمان ، سيميائية الكون ، مرجع سابق . ص 35 .
- 82- مدن ، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 56 .
- 83- المرجع السابق نفسه . ص 56 .
- 84- المرجع السابق نفسه . ص 41 .
- 85- المرجع السابق نفسه . ص 61 .
- 86- المرجع السابق نفسه . ص 98 .
- 87- توسان . برنار ، ما هي السيميولوجيا ، ترجمة محمد نظيف . أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 2000م . ص 21 .
- 88- مدن ، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 61 .
- 89- Cogley.Paul, The Routledge Companion To Semiotics and Linguistics. New Fetter Lane ,Landon EC4P 4EE, 2001. P.7.
- 90- المرجع السابق نفسه . ص 365 .
- 91- Hickson.Mark & Don W.Stacks, Nonverbal Communication(Studies and Application . Wm.C.Bron Publishers . Dubuque,Lowa, 1985. P37.
- 92- مدن ، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 29- 30 .
- 93- نور الدين . رايس ، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة . مطبعة سايس ، فاس ، 2007م . ص 368 .
- 94- مدن ، ترميم الذاكرة . مرجع سابق . ص 114 .
- 95- بارت . رولان ، درس في السيميولوجيا ، ترجمة عبد السلام بنعيد العالي ، ط3 . دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، 1993م . ص 60 .
- 96- Sless.David, In Search of Semiotics . Croom Heim . Landon .. 1986. P.56.
- 97- المرجع السابق نفسه . ص 61 .